
النشر لمن يستحق
قصص
غابات
الجميز
جمال النشار
كيان كورب
دار ليلى

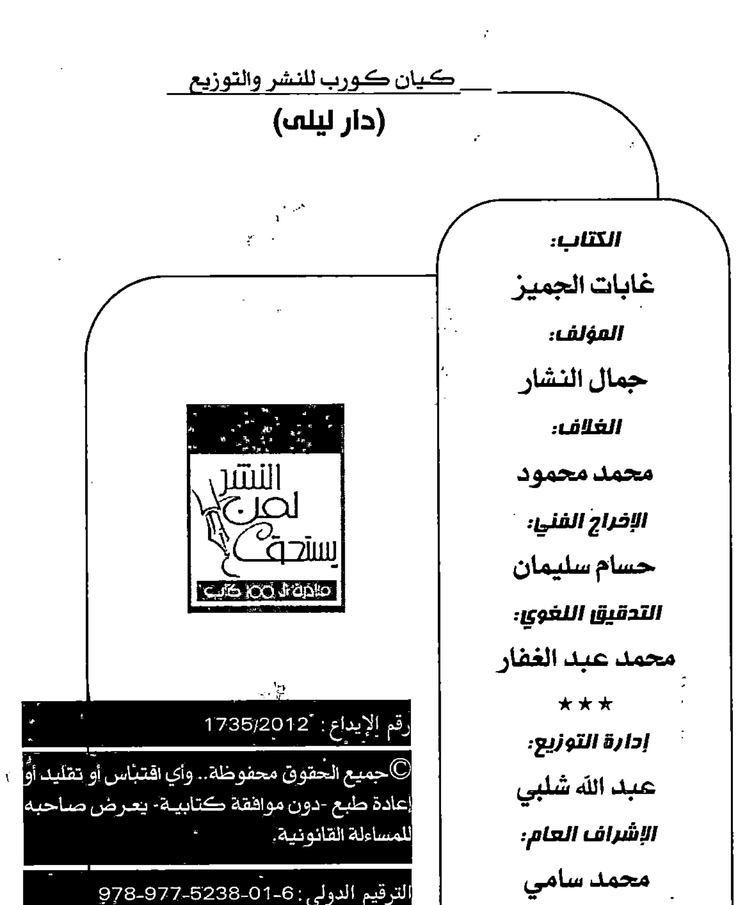
جمال النشار

"غابات الجميز"

(أنماط من الحقد الطبقي)

كيان كورب للنشر والتوزيع

(دار ليلى)



الكتاب:

غابات الجميز

المؤلف:

جمال النشار

الغلاف:

محمد محمود

الإخراج الفني:

حسام سليمان

التدقيق اللغوي:

محمد عبد الغفار

★★★

إدارة التوزيع:

عبد الله شلبي

الإشراف العام:

محمد سامي

★★★

رقم الإيداع: 1735/2012

الترقيم الدولي: 978-977-5238-01-6

المهندسين-23 شارع السودان—تقاطع مصدق-الدور الرابع—مكتب 11

هاتف: (002) (02) 33370042 - (002) (012) 3885295

البريد الإلكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

جمال النشار

"غابات الجميز"

كيان كورب للنشر والتوزيع
دار ليلى

مقدمة الناشر

كانت دار ليلى (كيان كورب).. منذ ما يزيد على أربع سنوات.. قد أطلقت مشروعها (النشر للجميع.. ولمن يستحق) الذي نال استحسان الكثير من المواهب وقتها.. التي أصبح البعض منها كُتابًا محترفين بعد ذلك.. أو توجهوا لمشروعات ثقافية متنوعة.. لمعوا من خلالها.

ومع ازدياد كمٍّ الأعمال التي يبدعها الشباب –خاصة بعد ثورة 25 يناير العظيمة– وفي ظل الظروف الحالية التي تمر بها مصر.. أصبحت سوق النشر والتوزيع في حالة ضعيفة.. خاصة مع استمرار ازدياد أسعار الخامات.. وإحجام كثير من دور النشر عن ممارسة نشاطها بتوسع.. وضعف القدرة الشرائية للقارئ المصري.. كذلك صارت عملية النشر محفوفة بالمخاطر.. التي تخيف طرفيها –الناشر والقارئ– على حدٍ سواء.. وكانت الدار نفسها من الدور التي تأثرت –بشدة– اقتصاديا.. ومع اضطرارها لإغلاق باب تقديم الأعمال.. فكرنا في حل بديل.. هو "النشر لمن يستحق".. وتطورت الفكرة كثيرًا.. إيمانًا

من دار ليلى (كيان كورب) بأهمية الحركة الثقافية.. وحرصًا منها على استمرارها في دورها.. وإيمانًا منها -كما عهدتموها- بالشباب الموهوب.

لذا فقد قررت الدار إحياء مشروعها "النشر لمن يستحق" لفترة محدودة هذا العام.. وعلى مراحل.. وبشكل استثنائي.. لعل ذلك يحرك المياه الراكدة.. آملين أن يحقق ذلك مجموعة نتائج.. على رأسها:

- توفير الفرصة للراغبين في النشر أن ينشروا أعمالهم.. وأيضًا عبر دار نشر لها اسمها.. ولله الحمد.. مع كبار الكتاب.

- تحقيق الأمان الاقتصادي للكاتب؛ حيث يضمن عودة ما دفعه بعد عام واحد.. مع هامش ربح خفيف.. إضافة إلى الغرض الأسمى.. وهو أن يرى أعماله منشورة.

- تحقيق المصداقية والوضوح بين الناشر والكاتب.. عبر شكل وبنود العقد الذي يعتمد على حماية الملكية الفكرية.. كما هي عادة عقود "دار ليلى".

- توفير عناوين جديدة ذات قيمة للسوق المصرية.. الأمر الذي

يخدم العملية الثقافية.

ندعو المولى -عز وجل- أن يكلل مجهوداتنا بالنجاح.. وأن ينال مشروعنا رضاكم.. وكلنا ثقة أن كثيرًا من الأسماء التي تنشر من خلال هذا المشروع ستصبح -مثل سابقيها- بإذن الله من اللامعين في مجالات ثقافية عدَّة.

الناشر



مقدمة وإهداء

إلى..

* الصانع الأعظم.. والمبدع الأوحد.. وخالق العقل وما يبزغ منه.. من روحك نشأت.. ومن جلال إبداعك تحور وجداني..

* "عايدة".. على الأرض بعد الإله.. لا تكفي كلمات.. (انتي عارفة أنا عايز أقول إيه).

* أبي.. فقط أقول: "السر في الكتاب".. وأنت المؤلف.. رحمك الله وجعل مثواك جناته العلا.

* كل من أحبني.. وكل من علمني حرفًا.. وإلى كل من أحبطني أيضًا.. شكرًا.. صنعتم مني كاتبًا..

السطور التالية تمت كتابتها بعصارة أيام الشقاء والانتماء.. والسعي.. والنفاق.. والزيف.. والطهر.. والعودة إلى النفس البشرية في أبسط وأعقد صورها.. أرجو كل شخص قرأ كلماتي ووجدها لا تستحق الوقت والمجهود اللذين تم بذلهما في قراءتها.. لا تكن جلادًا.. كن ناقدًا ولك مني كل التقدير.

جمال النشار

أبريل 2010

المدينة الزرقاء



مد يده في جيبه.. أحصى الجنيهات القليلة غيابيا لرابع مرة.. قدماه تضربان أسفلت الطريق في ما يشبه "الجرجرة".. القاهرة السوداء.. الغارقة في نعاس الخريف.. الإنارة المبهرة.. شوارع وسط المدينة تجوبها ليلاً فتحس أنك في مدينة أوروبية راقية.. صباحا نعيش معا الواقع المأساوي لأسوأ أشكال العالم الثالث.. قدماه بدأتا في إعلان الألم.. نظرة عابرة إلى أقصى اليسار.. لمح الملاذ المختبئ بين ضلفتي زقاق ضيق.. مقهى.. وإن لم يبدُ له كواحد من الخارج.. لكن الكراسي الخشبية المتراصة.. والمناضد المعدنية الصغيرة أخبرته بأن هناك مقهى مختبئا هناك.. لا أحد هنالك.. لا رواد.. دفع بجسده في بطء إلى داخل الزقاق.. محال مغلقة على الجانبين.. لا يكاد أكبرها تزيد مساحته على متر ونصف المتر.. التقطت أذناه بعض الضوضاء التي تبدو لك من أول وهلة أنها مزاح بذيء.. فتى هزيل مكوم في "ترينينج" قذر استحال إلى لون الفحم ومُحيت معالم ما بدا أنه كان كتابة عليه ممددا بين كرسيين متلاصقين صنع منهما فراشا افتراضيا.. قطط الليل الضالة تجوب وتتشمم كل جزء في الأرضية الباهتة المكنوسة بعجالة وبغير إتقان.. بحيث ترك كانسها أكثر مما أزال من تراب ومخلفات.. توجه ببصره المنهك إلى اللافتة التي تشير إلى "نادي الملوك" كُتبت بحروف استهلالية بطلاء كان

أبيضَ يوما ما.. على لافتة خشبية عتيقة الإطار.. تشقق طلائها في حد ذاته صنع لوحة معقدة من الفسيفساء عجيبة القدم.. ألقى بجسده على أقرب كرسي إلى باب المقهى.. في حين ميزت أذناه مع ارتفاع الضوضاء صوتين مختلفين.. ربما ثلاثة.. يتمازحون بين "كركرة" نرجيلة عالية بدا من علوها أن الجالسين بالداخل مدخنون عتيقون، خطر له أن يرفع عقيرته بالنداء.. إلا أنه تراجع لسبب ما لا يعرفه.. سكن قليلا.. واجتاحته رغبة عارمة للإصغاء لتفاصيل هذا الحوار الدائر بالداخل.. إلا أنه مع كل إنهاكه لم يميز سوى بضع كلمات تخللها اسم "عبد المعز" الأمين.. لا بد أنه أمين شرطة.. استنتج هذا.. بعدما اجتاحت أنفه سحابة لعينة الكثافة من دخان الحشيش المحترق.. هنا لم تحتمل رئتاه.. سعل سعلة عنيفة تلاها سيل من السعال المختنق.. واجتاحته في الوقت ذاته موجة حرارة ناتجة عن إحراج من أنهم سيكتشفون أنه كان جالسا يتنصت على حديثهم.. وقف على قدميه.. وألقى السلام بصوت عالٍ في محاولة لإدراك الموقف.. وحينما هم بالولوج إلى الداخل.. سد طريقه جسد عملاق.. دب بشري في جلباب أزرق فضفاض.. مائلا بجسده ناحيته في تحذير علني أن في دخوله مصيبة موشكة.. تراجع خطوة وهو يكمل سعاله على سبيل تفادي الموقف..

- أي خدمة يا باشا؟ "أأمر".. قالها العملاق بصوت غليظ.. تشابكت

أحباله الصوتية وتخلله كثير من اللعاب المتناثر من فاه نصف المفغور..

احمرار عينيه وانتفاخ الجيوب تحت عينيه دلا فورا أن الرجل مسطول منذ زمن ليس بقليل..

تراجع ثانية وعطس عطسة مفتعلة.. ثم جلس ثانية على مقعده:

– هات لي شاي بنعناع لو سمحت..

غمغم الدب البشري بكثير من اللغط ثم قال في ضيق وازدراء جلي..

– نعناع؟ لا مؤاخذة يا بيه.. مش أوانه خالص أصلا.

أثار ضيقه بتبجحه.. فقال له بنفس "القرف":

– طب مالك قرفان ليه؟ هاته سادة تقيل سكر زيادة..

رمقه بكره واضح وكرر لا تعرف إن كان مؤكدا أم ساخرا:

– تقيل؟

فقال متجاهلا النظر إليه:

– إن شاء الله..

استدار العملاق وولج إلى الداخل مترنحا يكاد يسقط.. كبناية يتلاعب بها زلزال قوي..

هنا برز إلى عقله كل المقت والغضب الناتجين عن إحباط اليوم.. وكل

يوم.. إحباطه الذي هو بسببه هنا الآن.. معاناة كل شاب مصري من طبقته تحت المتوسطة السائدة.. الحائرة بين أن تنحت صخرا لتأكل فتاتا.. أم تجلس مثله ترثي لحالها وتحسد الكبار الأغنياء.. آه.. الأغنياء.. الذين يأكلون ما بدا لهم.. ويسكنون أينما بدا لهم.. ويتزوجون من أمثالهم من الطبقة الدهنية العليا..

"قال نعناع قال.. رايق أوي بـ(...) أمه!"..

ثم علت الضحكات الماجنة المحملة بأبخرة الدخان الأزرق.. هنا انقبضت العضلة العاصرة أعلى معدته وانتشرت الرعشة إياها.. تبا للقولون العصبي.. واجتاحه خوف غريب.. كخوف مراهق من لجنة مباحث في طريق مقفر.. ترى هل يفر، أم يتشاجر؟ المنطق يتكلم.. هذا الوحش الآدمي قادر على سحق عظام وجهه بضربة واحدة.. هنا اشتعل الوسواس القهري المزمن داخل أحشائه.. توترت أطرافه.. علت الضحكات مرة أخرى بمجون..

هنا قفز إلى ذهنه مرة أخرى الإحباط.. ووجد نفسه يسخر من نفسه بكل شراسة:

- "ما انت طول عمرك سلبي.. إمتى ياد كنت محترم.. سبعة وعشرين سنة.. وبكالوريوس تجارة ولسه بتتنطط بياع في محل.. "كاشير" في محل فول وطعمية.. هأو.. ده حتى الحشيش اللي كل الدنيا بتتعاطاه

مـزاج.. تعبـك وعيـاك وجابلـك الوسـواس والعـصبي.. ولـسه بترميهـا علـى اخواتك وامك في مصروف القهاوي والتلطيع في كل مصيبة"..

"أصل النعناع بيرطب".. هاهاهاهاهاهاهاهعع..

ارتطمت الجملة الساخرة بمركز السمع في مخه.. غشت عينيه طبقـة الدمع المخنوق.. كاد يبكي كالأطفال:

- "خلاص.. إيه فايدة كل الكتب والروايات والعلم اللي انـت فـاكره مخليك متميز وذكي عن كل الفشلة اللي زيك.. ومخليـك تتنـك علـيهم.. أنـا قريت كتاب لفلان.. رواية فلان جامدة أوي.. المجلة العلانية بتقولك كـذا.. يا خسارة العقل اللي كنت فاكره عاملني بني آدم"..

وانتابته حالة رهيبة من اليأس والذعر.. مـاذا يفعـل؟ عجـز سـاحق مختلط بتردد ملح بشدة..

هنا برز الرجل مترنحا يحمل صـحفة معدنيـة عليهـا كـوب الـشاي الساخن تتصاعد منـه الأبخـرة.. يكـاد يـسقط الوغـد.. لكنـه بحنكـة وتعـود اكتـسبتهما يـده الخـبيرة أنـزل كـوب الـشاي أمامـه بعنـف غـير ملحـوظ.. "رزعة" خفيفة محنكة.. ارتجافة أخرى غزت أعلى معدته ووجد نفسه غير قادر على النظر إليه.. تركه العملاق مترنحا ثم جـذب نفـسا عاليـا غـط فيـه وتمخض وبصق بصقة أحـدث اصـطدامها بـالأرض صـوتا مقـززا.. الـبرودة..

البرودة تنتشر أعلى كتفيه.. وتغطي أذنيه اللسعة الشهيرة لرياح الخريف.. رفع كوب الشاي وتشممه بحذر.. ورفعه ناحية المصباح الواهن ليكتشف إن كان قد دس أحدهم شيئًا فيه.. فهو يعلم عن حبوب "الباركينول" والـ"الأمادول" أو "الكيميا" عندما تختلط بمشروب ساخن.. وسواسه القهري يأكل أحشاءه.. ضحكات مكتومة مصحوبة بـ"كركرة" عميقة.. لكن شيئًا ما داخله قد جعله يرفع الكوب إلى شفتيه ويجرع منه بنهم.. عيناه تدمعان وقصاصات معاناته تتدفق متلاحقة في ذهنه.. يسود صمت مطبق لعدة ثوانٍ..

هنا برزت السحابة شديدة الكثافة من أحد جوانب المحل.. تزحف نحوه في طفو عجيب..

وجهه الشاحب غير الحليق يغيب وسط سحابة الدخان الأزرق.. استمر الصمت لثانية أخرى..

هنا انفجر هو في نوبة شديدة من السعال الجاف الذي يؤلم المعدة ويرج الجسد.. اختلط السعال بقهقهات ضبعية متلاحمة.. متعالية الوتيرة.. شهيق.. ضحك.. الدمع يغمر وجهه.. هب واقفا ممسكا بصدره.. والضحكات المخدرة المتتابعة تخترق صمت المدينة وتعلو.. وهو يشهق طالبا الهواء بعنف.. يشهق.. يزفر.. انفصل ذهنه عن الواقع للحظة.. رأى فيها القطط

الضالة تتمرغ على الأرض ضحكا وهي تشير إليه.. الفتى الهزيل المكوم يضحك وهو مغمض العينين فاغر الفاه.. زفر.. بهدوء نطق الشهادتين.. انحنى.. هدأت عاصفة صدره.. وأخذ يمسح وجهه المبلل..

لكن ما هذا الصوت؟ استحالت الضحكات إلى غرغرة.. إلى منازعة وحشرجة.. ثم تولى الصمت الأمر لثانية.. مد عنقه بدهشة ليقرب أذنيه من الباب.. أجابه صمت ثقيل.. فقرقعة ناجمة عن احتراق الفحم.. وجد نفسه تهدأ.. مد يده ليخرج من جيبه جنيها.. ثم دفع بقدميه.. ومال برأسه ليمسح المكان من الداخل بزاوية شبه أفقية.. العملاق في الجلباب الأزرق.. ممددا على جوال من "الخيش".. شاخص البصر.. فمه يسيل منه لعاب أبيض مزغب.. وعجوزان آخران مكومان على أرضية من البلاط القذر.. كل منهما منكفئ للأمام في وضع غير مريح.. وأحدهما قابض على "غابة" طويلة من البوص الأصفر.. ينتهي طرفها داخل برطمان زجاجي.. سحابة معربدة من الدخان تطفو في سقف المكان.. نهض في هدوء عجيب.. ألقى بالجنيه على الأرض بجوار الجثث الثلاث الملقاة أسفل سحابة الموت.. ثم استدار.. وبابتسامة عجيبة دس يديه في جيبي سرواله.. واتجه خارجا من الزقاق..

الفتى الصغير النائم يتململ في رقاده.. ثم سكنت حركة جسده.. رمق القطط بسخرية.. مشى بخطوات هادئة.. ابتسامته العجيبة تتسع.. تستحيل إلى ضحكة صامتة.. ضحكة انتشاء.. ورفع بصره إلى ظلام المدينة.. وبدا إليه أن ظلام المدينة يتلون ببطء إلى اللون الأزرق القاتم.

غمرة



"ترددت كثيرا في سرد القصة التالية.. لربما انتقدت من الناس لكثرة الخوض في الكلام عن موضوعها.. ولربما لأنها تجربة شخصية بحتة.. عولجت بشكل أدبي ممزوج بالخيال.. لكني آثرت أن أسردها لما فيها من جدل.. وما تحمله من شيطانية لم أصدق أنها موجودة حتى لمستها"..

لا أعرف لماذا قررت اليوم أن أقطع المسافة القصيرة بين منزلي وميدان رمسيس ماشيا على قدمي.. الثالثة صباحا.. وأذناي تصفران ورأسي يتآكل ببطء من كثرة المحادثات الهاتفية المتلقاة.. كديدن كل موظفي مراكز الاتصالات.. أنهيت مناوبة عملي في الثانية والنصف.. قفزت في "ميكروباص" كعادتي.. قذفني من حي المهندسين إلى أشهر ميادين العاصمة.. إنارة الميدان المبهرة تحرق عيني المنهكتين.. أنا أقطن حي غمرة.. أي أن بيني وبين الميدان محطتين لا أكثر.. عادة ما أحشر جسدي المكدود في "ميكروباص" آخر – لأن الأول ينهي رحلته في الميدان – ليقطع المحطتين في دقيقة واحدة لا أكثر..

لكنني في ذاك اليوم لم أفعل.. ببطء وتراخٍ سرت أقطع الميدان.. الثالثة صباحا وتحس كأننا العاشرة مساءً.. كل أشكال البشر تتدفق على

الميدان.. تقطعه معي السيارات الفاخرة المحملة بالكائنات الليلية.. وبقايا السهرات الماجنة.. وساكنو الأقاليم العائدون إلى أراضيهم.. أو إلى الأخنان التي سيقضون فيها ليلة تعيسة.. سائقو الميكروباص وأصواتهم الغليظة التي شوهها كثرة الصراخ والنداء إلى مناطق وجهتهم.. وأمناء وعساكر الشرطة البؤساء الذين أتعسهم حظهم في الخدمة الليلية في الميدان.. بائعو الملابس الرخيصة الذين يفضلون "الفرش" ليلا ليتجنبوا مضايقات شرطة المرافق وموظفي البلدية المتجهمين دوما.. خليط عجيب.. مصر في أكثر أشكالها عريا.. ميدان رمسيس.. بكل التثاقل والكسل سرت.. وكأنني لتوي خارج من إحدى "الغرز" أو الحانات الرخيصة.. كنت وقتها أرتدي الجينز والـ"تي شيرت" الرياضي.. مجرد ابن آخر من أبناء المحروسة العاديين.. لكن تلك النظرات التي كنت أقابلها من القرويين والبسطاء كانت تخبرني في حقد أنني شاب مائع رقيع.. "فرفور".. كما يفضل قولها البسطاء.. لا أدري لماذا أيضًا شعرت بغصة حقيقية في حلقي.. وكأنني أركض متسلقا جبلا عظيما.. عامل بناء آخر مكوم بجوار سور حديقة الميدان المعدني.. وبجواره "العدة" إياها.. مطرقة قوية ومسمار كبير (أجنة).. وبعض الأدوات الأخرى مربوطة جميعها بسير من المطاط القوي.. محتضنا إياها في شبة استماتة وهو يغط غطيطا عاليا.. ضاع علوه في زحمة الميدان..

قطعت نصف الميدان وغصة حلقي تؤرقني.. شعرت بذلك الشعور الدفين في كل منا.. ذلك الشعور الغامض بأن أحدًا ما يراقبك.. ألقيت بصري على الطريق الخاوي خلفي.. فرأيت تلك السيارة الفضية تسير متمهلة وكأنها لتوها تسير.. لا تزيد سرعتها على عشرة كيلومترات في الساعة.. أكملت سيري..

لكني فوجئت بالسيارة تسير بمحاذاتي.. وصوت ما يأتي منها.. تبادر إلى ذهني فورًا معاكسات الشباب عندما يسيرون بتمهل بجوار فتاه ما ليبدءوا في غزلهم.. أو في وقاحتهم.. والأخيرة الأكثر انتشارا.. نظرت إلى السيارة ثانية.. طالعني وجه شاب ما يحدثني.. وكأنه يسأل عن شيء ما وهو يشير إلى الطريق.. اقتربت منه وانحنيت في مستوى النافذة.. لتتضح لي معالمه.. وجهه مستطيل قوي الفكين.. ذقن غير حليق في حالة يفضلها الشباب.. ملامح وسيمة حادة.. كأنه ممثل أدوار شر في السينما.. مسحة من كاريزما الممثلين على وجهه الراقي..

- بقولك لو سمحت.. هي غمرة كده على طول.. ولا فاتت؟

صوت عميق غامض يناسب أرستقراطيته.. مع تلك "الخنفة" المميزة لمتحدثي اللغات الأجنبية..

للوهلة الأولى.. لم أدرك ما يسأل عنه.. فقربت وجهي إلى السيارة

أكثر وسألته في فضول:

- أفندم؟

مد هو رأسه ناحيتي بدوره ورفع صوته متسائلا:

- غمرة.. محطة غمرة.

فطنت لما يقوله وأنا أحدق في وجهه وأجبته ببساطة وكسل:

- غمرة قدام.. كمان محطة قدام علطول..

ابتسم هو في ود زائد وقال بمداهنة:

- يعني كتير قوي؟ لسه بدري؟

هنا قفز إلى ذهني تعليق ساخر: "انت لسه هاترغي"؟ فأجبته بهدوء:

- مش قوي يعني..

فاتسعت ابتسامته الودود التي أخافتني من دون سبب.. ورد:

- انت ماشي هناك؟ يعني هي في طريقك.. ولا طريقك مختلف؟

كدت أخبره أنني أسكن هناك.. إلا أنني وجدت نفسي أقول له:

- لا لا.. أنا بركب من هنا أي حاجة.. بيتي قريب..

هنا وجدته يفتح باب السيارة المواجه لي ويشير بحماسة إليَّ كي

أدخل السيارة وهو يكمل قائلاً في لطف وجدية:

- طب نط يا عم اركب.. أنزلك هناك.. اركب يا ابني..

قالها وكأننا أصدقاء قدامى..

شكرته وقلت إنني أفضل المشي اليوم.. أصر في جدية.. مبسطا الأمر وأن الأمر ليس بأمر مهم..

- هارميك هناك.. وهاكمل أنا.. يلا يا عم.. يلا..

وجدت نفسي أجلس بجواره في السيارة الفارهة.. التفت موجها كلامه لي في لزوجة جعلتني أحس بشيء من الندم لأني أقبلت على قبول عرضه.. شيء ما في ملامحه الحادة.. الوسيمة.. الباردة.. جعل القلق يسيطر على ذهني.. نفضت الأفكار السلبية.. وطمأنت نفسي بأن الأمر لن يتعدى الدقائق ولسوف ينتهي.. زاد من سرعته.. وبدأ في الدردشة معي عن اسمي وعملي:

- أنا أصلي محتاج "إنترنت كافيه" ضروري.. الكمبيوتر بتاعي باظ.. وصحابي قالولي في غمرة الكافيهات بتسهر أربعة وعشرين ساعة في الأسبوع.. نطق جملته الأخيرة بإنجليزية محترفة بلكنة أمريكية صرفة.. (24/7).. هززت رأسي متفهما.. وهنا فطنت إلى ملابسة بعد تدقيق قصير.. كان يرتدي سروالا جينز.. تمزقت أجزاؤه عند ركبتيه.. وأعلى الفخذ..

صيحة الشباب الشهيرة التي لا يجرؤ الشباب من الطبقة المتوسطة على ارتدائه.. وقميصا أحمر حريريا تتخلله خطوط طولية سوداء.. كانت ملابسة ضيقة تبرز جسدا ممشوقا جديرا بموديل إعلانات أو ممثل.. وجدت في ملابسه ما أكد نظرية ما في رأسي.. وأضفت إلى هذا الود الملحوظ في كلامه وطريقته المبسطة للأمور..

"الواد ده شاذ".. هكذا انطلقت الفكرة الماجنة في رأسي.. هنا وجدته يترك غمرة مكملا طريقه.. أشرت إليه قائلاً في شبه صياح:

– بس.. بس انت كده في غمرة..

نظر لي مستغربا وصمت للحظة وكأنه يتعجب.. لكن في جزء من الثانية تغيرت ملامحه وقال:

– طب تعرف انت أي "نت كافيه" يكون فاتح.. أصل متهيألي ان مفيش..

قلت له وشكوكي تترسخ أكثر فأكثر:

– لا مش عارف والله.. انت مكمل مشي بالعربية ليه؟ أنا ممكن أنزل هنا..

ابتسم الابتسامة الرهيبة ذاتها.. وقال في شيء من الاستهزاء الضاحك:

- مالك يا ابني؟ انت وراك حاجة مهمة؟ أدينا بنتمشى شويه..

ثم استطرد في نشوة خفية:

- أصل أنا زهقان.. وصاحبي في الساحل وبقيه اللي اعرفهم بيصيفوا.. التفت لي فجأة بقوة وقال:

- انت قلت لي ان انت بتكتب كويس.. ونفسك تبقى سيناريست؟

أومأت برأسي وأكملت:

- يعني.. على قدي.. وبكتب شعر أغاني.. عربي وإنجليزي..

مط شفته في إعجاب وقال:

- أنا علاقاتي في الوسط الفني كويسة جدًا على فكرة.. أنا كنت لسه مع (...) و(...) أول امبارح..

وذكر أسماء فنية شهيرة في عالم الغناء والتمثيل..

ثم قرب وجهه مني بحركة غير طبيعية وقال في خفوت بابتسامة مثلجة ماجنة:

- ممكن أظبطك..

نظرت خارج النافذة في تجاهل وأجبته في اقتضاب:

- ربنا يكرم.. وشعرت ساعتها بأن ما أفكر فيه هو حقيقة واضحة..

هنا انطلق لساني في ميكانيزم دفاع لكي أبعد عن ذهنه ما يحاول أن يهم بفعله:

– انت عارف؟ أنا مرة حصل موقف شبه اللي احنا فيه ده.. مجموعة شباب كانوا عايزيني أوريهم شارع معين.. أكملت ضاغطا على كلماتي في قوة وصلف:

– واما ركبنا سوا ومشينا.. قالولي إحنا عايزينك تجرب معانا الجنس المثلي.. (قلت كلماتي الأخيرة بالإنجليزية).. فانا اتنرفزت جدا.. وقعدت أخبط على تابلوه العربية.. وشتمتهم.. وقلت لهم أنا هنزل هنا.. واتنرفزت جدا.. كان موقف زبالة بجد..

راقبت ملامحه تنقلب.. وكان وجهه الوسيم يزداد سوادا.. وهنا انفجر في عدوانية واضحة:

– استحالة شاذ يقول إن هو كده.. مفيش حد بيعمل كده.. دول كانوا أكيد بيهيسوا عليك.. أقولك؟ أنا شاذ.

ألقى قنبلته في غضب وأكمل:

– شفت أي تجاوز أو تحرش مني؟ هاه؟ رد عليَّ.

هنا ذهلت لعدة ثوان.. ثم نظرت إليه صامتا.. فأكمل بعدما زالت كل

اللزوجة والمودة من حديثه وأصبح يتحدث ببرود وانفعال وكأنه يعاتب صديقا قديما:

- انت اتعاملت مع شواذ قبل كده؟ انت فاكر الشاذ ده المايع المرقع اللي هو... ووضع يده على جبينه وكأنه يتذكر شيئًا ما.. اللي هو بيطلع جنب العوالم والرقاصات ده؟

أجبت في وجوم:

- لا طبعا..

أكمل في برود وما زالت ملامحه متقلصة:

- أمال ليه انت قلقان؟ ليه قلت لي الكلام ده بالذات؟

لم أجد ردا.. فقلت له في بطء مستجمعا أي كلمات عندي:

- علشان.. آآ أصل احنا.. آ.. ما خدناش على وجود الشاذ الصريح في بلدنا.. و...

قاطعني بحزم:

- لا مش كده.. عارف ليه؟ علشان إحنا بغبغانات.. بغبغانات بنردد وبس..

نظرت له في عدم فهم وأنا غير مقتنع.. فعاد ليتحدث إلى أناس

وهميين متجاهلا وجودي:

– مجتمع متخلف.. عادي.. شاذ.. هو حر، انت مين علشان تحكم عليه وعلى وجوده.. انت صرصار.. كلنا صراصير على الأرض.. وأشار إلى أعلى بإصبعه وأكمل: هو بس اللي يقول ويحكم.. ويحاسب.. ثم وكأنه أدرك وجودي فجأة فالتفت إليَّ وأردف ببرود ولوم قاسٍ:

– وبتقوللي عايز تبقى فنان وبتفكر بالطريقة دي؟ انت تعرف ان تلت الوسط ده كده؟ تعرف ان (...) شاذ.. و(...) شاذ؟ طب انت تعرف (...)؟

صدمني الاسم.. اسم وزير من الوزراء.. هززت رأسي بأني أعرفه.. أكمل في وحشية خافتة:

– آه.. هو كمان كده.. رفع رأسه وصوته كمن يحدث السماء:

– ومش أي وجود.. احنا بنطلع.. بنكتر.. تعايش مع ده بقى!

انكمشت داخل عقلي.. دوار خفيف يجتاحني.. أحسست وكأنني أحلم خارج الواقع.. وافقت على دخان سيجارة يدخل رئتيَّ.. مد يده لي بواحدة.. أخذتها.. أشعلها لي..

كانت السيارة تجوب القاهرة الغارقة في الليل العذب.. استرخى هو

في هدوء.. ولان صوته.. طفق يتحدث بحرية:

- تعرف مندور قابيل؟

أجبته في هدوء:

- قصدك رجل الأعمال المشهور بتاع قضية المركب اللي غرقت بالناس وهما رايحين الحج؟

أجابني بابتسامة شيطانية:

- ده يبقى خالي.. وأنا عندي مكتب سياحة.. ومعايا جنسية بلد تانية مش لازم تعرفها.. وصاحبي أبوه ملياردير مصري فرنساوي.. يا ابني الشواذ اللي بتسمع عنهم دول العواجيز بتوع العيال.. وصبيان العوالم.. والنصابين المندسين في النص اللي بيطلعوا مصالح على الخلايجة.. دول اللي مخليين الشعب ده فاهمنا غلط.. ده اختياري.. أنا حابب ده.. زي ما انت تحب واحدة عاجباك بالظبط.. ومش لازم المشاعر تبقى كلها جنس..

كانت كلمتا "شواذ" أو "جنس" تخرجان منه بالإنجليزية وكأن شخصا ما منسحق.. وراضخ تحت ضغط رهيب.. توقفنا بالسيارة أمام إحدى ماكينات سحب النقود.. ذهب هو ليسحب بعض النقود.. وابتاع سجائر وعاد للسيارة.. قدم لي علبة "بيرة".. رفضت متعللا بأني لا أشرب كثيرًا..

أصر هو وقال:

– يا ابني مش هاسطلك واعمل معاك قلة أدب..

ابتسمت رغما عني.. فوجدت لأول مرة ابتسامة حقيقية على وجهه.. ابتسامة أحد وصل لما كان يريد الوصول إليه.. فتحت علبة البيرة وجرعت منها..

– تعرف.. أنا كتير قوي بنزل بالليل كده.. أتعرف على أي حد أتكلم معاه.. زيك انت كده.. كتير قوي منهم شباب بيئة.. أول ما بيعرفوا اني كده.. اللي بيخاف وبيقوللي نزلني.. واللي بيقولي هتدفع كام.. كده علطول.. دول بيقرفوني في معدتي..

– (قالها بالإنجليزية): "sick to my stomach".

انت أول حد أتكلم معاه عن اسمي وميولي بالطريقة دي.. ولو انت مش شاذ.. ومش حابب تجرب.. أوكيه.. ممكن نكون صحاب.. أنا أعز صحابي عاديين.. وبجد هتلاقيني صديق أحسن من أي بنات عرفتها في حياتك..

مع جرعات البيرة المثلجة.. وأسلوب كلامه الودود المنسكب داخل عقلي.. وجدتني أدور.. أدور بقوة..

شيء ما يتزعزع من داخل أعماقي.. يفور.. يرتج.. أثقل الكحول عينيَّ.. ألقيت ببصري نحوه وهو يقود السيارة.. فخيل إليَّ أنني أرى أحدًا آخر.. أحدًا متشحًا بالسواد.. أحدًا يقهقه في نشوة.. أحدًا يتضخم صوته لكي يصير هو الصمت ذاته.. ووجدتني أميل إلى كلامه الشيطاني المقنع.. لكل منظومة دفاع في ذهني، كان يجد ثغرة يبرر بها كينونته.. لكن فجأة.. حدث شيء رهيب.. ارتجت السيارة بعنف وعلا صوت ارتطام رهيب.. ووجدت نفسي خارج السيارة.. لا أعرف كيف ومتى.. أفقت قليلا.. فوجدت أغرب ما يمكن أن تراه عيناك في واقع وليس حلما.. رأيت هذا الغريب يركض.. يركض مبتعدا عن السيارة وعني.. لينظر إليَّ من خلف كتفه وهو يلوذ بالفرار في رعب.. يركض.. وينظر إليَّ.. يتعثر.. يركض ثانية.. يلهث.. إلى أن ذاب في الظلام تاركا إياي والسيارة على جانب الطريق العريض في أحد أشهر الميادين في العاصمة.. ذاك الميدان الذي ترى فيه مصر في أشد صورها عريا.. أفقت من ذهولي على السيارة الواقفة في برود.. والميدان الذي أراه لأول مرة بلا مخلوق واحد.. حتى عساكر الشرطة والميكروباصات اختفت.. ولم أجد أمام السيارة سوى فتى صغير لا يتعدى السابعة من العمر.. جميل الملامح عذبها.. يحمل في يده كتبا كثيرة.. اقترب

مني ثم قال بصوت أشبه بصوت هادئ رخيم وكأنه ليس بطفل:

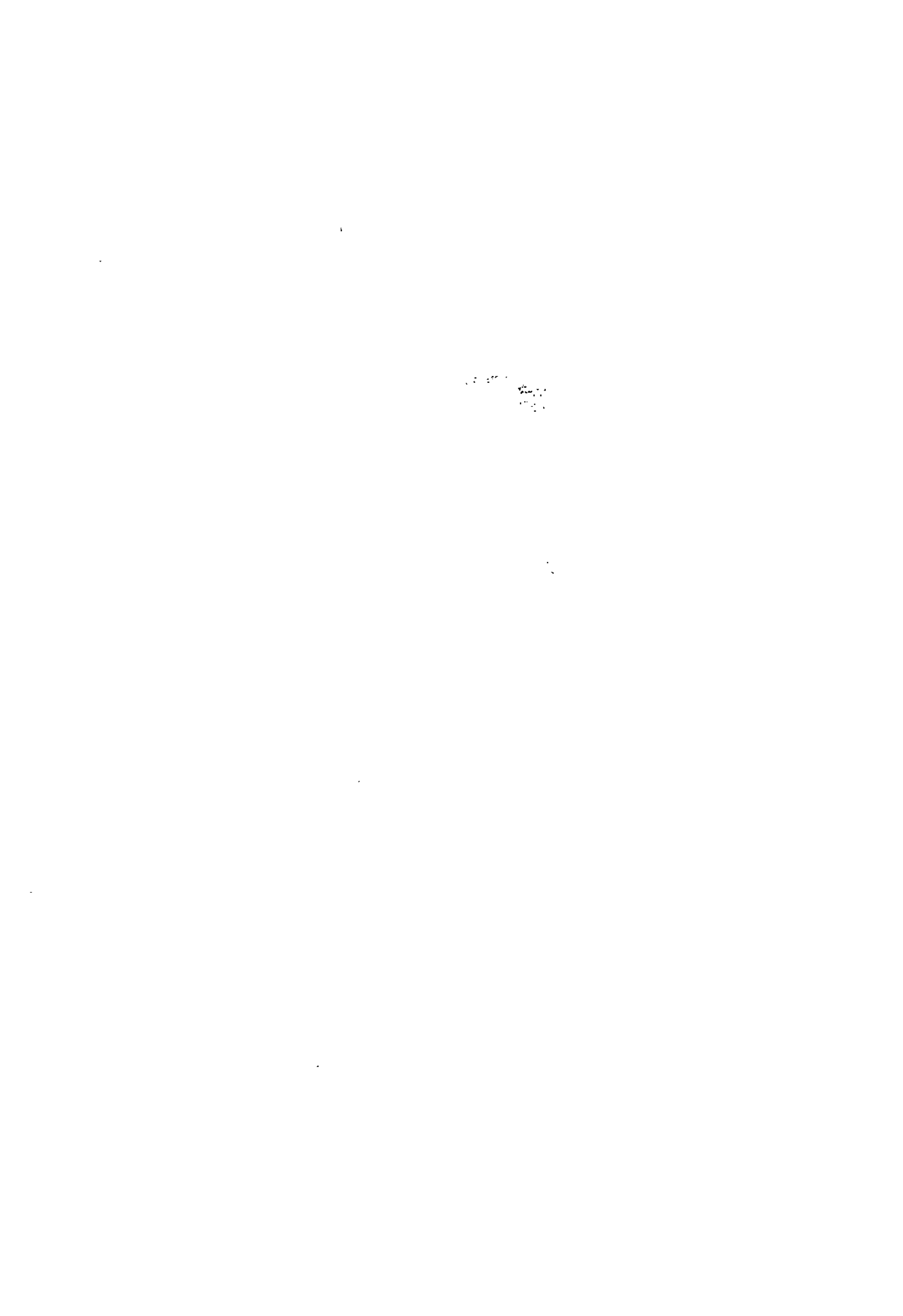
– لو سمحت.. هو فين جامع الفتح؟ مش ده ميدان رمسيس؟

أشرت إلى المسجد الكبير الشامخ في وسط الميدان ولم أتكلم.. ظللت أراقب ذلك الطفل في صمت..

يسير متمهلا.. إلى أن وصل إلى باب المسجد.. ووقف منتظرا كأنه حارس دءوب.. هنا فطنت إلى حركة الميدان التي تسربت إلى الوجود في هدوء متصاعد الوتيرة..

إلى أن جاء ذاك الميكروباص مناديا "غمرة.. عباسية.. أول عباس".. أشرت له فتوقف.. حشرت جسدي كعادتي على المقعد الصغير بجوار الباب.. وجدتني أهتف للسائق: أنا نازل غمرة يا ريس..

بستان فاكهة



منذ أن وعت عينا "نهى" المرآة وهي تعرف أن ملامحها ليست فاتنة.. ملامح أقرب إلى صبي شقي لم يبلغ ذكورته كاملة.. وكلمات أقاربها المداعبة: "انتي كنتي هتطلعي ولد يا نونا".. ثم يتدارك الكل أمره مكملا: "بس في ولد قمر كده؟!".. وكأنها ترعرعت مع نفاق الدنيا الذي يمتهنه البعض في يومنا هذا.. لم يكن في خيالها أي خطة لامتطاء فرس أبيض.. ولا فارس أحلام.. سخافات.. كانت دوما ما تقول لنفسها ذلك في ضيق.. وكأنها تتوارى من عار وليس حلم مراهقة بريء.. لكنها كانت كتلة ذكاء مستعرة.. قرأت لجمال حمدان وبرنارد شو وهي في الثالثة عشرة.. عشقت إدريس ومحفوظ.. كانت تعرف أسماء رؤساء تحرير ثماني صحف بلا مواربة.. لم تتنزه في مراهقتها مع شاب وسيم.. ولا قبيح حتى!!

كل الذكور في عينيها مخدرات وفتيات وكرة قدم وعادة سرية!! عرفت كل ما يمكن لامرأة ناضجة في الثلاثين معرفته.. وأصبحت الدهشة تزور نهى نادرا.. فقط حلم واحد لم يبارح ذهنها العجوز..

(بقلم نهى الشناوي).. تلك العبارة السحرية التي شكلت حياتها ومسارها.. كلية الإعلام.. تجاوزت سنواتها الأربع وكأنها تدخل خدمة عسكرية.. وكللت خطواتها بـ"جيد جدًّا مرتفع".. كان مشوارها خاليا من

العبث.. ومزاح الطلبة.. والرحلات.. والحب الجامعي إياه.. التي تحدد عمره الافتراضي بعمر "التيرم".. بل كانت تطارد عبارة حلمها العتيد.. ومع خبرتها الكبيرة وأعوام عقلها التي فاقت عمرها.. اعتاد الكل على معاملة نهى وكأنها مستشار أعلى.. لكل صغيرة وكبيرة.. حتى أمها.. كانت تترك لها الاختيار في الأمور الصعبة.. وأفاقت نهى على واقع لم تحاول تفاديه.. كيفية الوصول.. البداية..

- كل الناس بتبتدي صغيرة.. خليكي في المجلات الخفيفة.. ونشوف لك واسطة كده.

كانت تلك كلمات أبيها.. الموظف البشوش الذي يبسط الحياة وكأنها بستان فاكهة.. لكنه كان يدرك مدى صعوبة الأمر.. آلاف من خريجي الإعلام.. عاشوا بحلم العبارة إياها.. وانتهوا في مجالات أخرى تماما.. يصل منها إلى السكرتارية أحيانا.. لكنه كان دوما ينهي عبارته بكلمته الشهيرة: "ظروف بلدنا ولازم نتحملها".. ويضحك ضحكته التي ترى الحياة بستان فاكهة.

كانت ترفض في قنوط.. وهي لا تزال تصر على أن موهبتها هي التي سترفع اسمها وتشد من أزرها..

وبدأت رحلة "اللف" إياها.. الرحلة التي لم تترك كاتبا وصحفيا إلا

وعذبته وحطمت همته..

مقال هنا.. قصة قصيرة هناك.. زجل ربما.. شعر محكم خال من الخيال.. لكن الأبواب كانت تشم أنفها بالتراب من كثرة الانغلاق أمامها..

نصحها معيد محترم (بتوصية شخصية) إلى أن تذهب إلى جريدة جديدة تبدأ مشوارها.. وتطلب محررين.. وإن كان قد أخبرها أن راتبها لن يصل إلى المتوقع.. لكنها بداية "والسلام"..

ذهبت للعنوان الذي انحفر في ذهنها تو دخوله أذنيها.. بناية متوسطة في أحد شوارع الجيزة..

لافتة رخيصة على البوابة تقول: "جريدة البلد الأسبوعية".. لم يبد الاسم ذا رنين مألوف على الإطلاق.. ذلك التوتر اللاذع المذاق الذي يسبق كل مقابلة عمل.. رتبت ملابسها البسيطة في مرآة المصعد القديم متساقطة القشرة اللامعة.. الرابع.. طابق خال من الحياة.. أبواب مغلقة.. يبدو أكثرها مهملا وإلا فلماذا كل طبقات التراب تلك التي تعلوه؟! لمحت الباب في آخر الرواق.. باب معدني (ألومنيوم) مفتوح.. أسفل لافتة أخرى أقل رداءة من التي تزين جدار البناية.. إضاءة النيون الباهتة (لمبات موفرة!).. جال بذهنها الخاطر الساخر.. تقدمت تشجع نفسها وعبارة "بقلم نهى الشناوي" ترتسم أمام عينيها على صفحة جريدة فارغة تماما.. اقتربت من الباب

بتمهل.. ودلفت إلى داخل الشقة..

صالة فسيحة بحق في منتصف جدارها قبع "كاونتر" خشبي وخلفه تناثرت مكاتب متعددة على طراز الوحدات المقسمة إلى أربعة أقسام.. طراز عملي على طريقة العم سام المستوردة مع سيل الاجتياح الفكري والثقافي.. خلف الـ"كاونتر" تجلس فتاة نحيلة.. نظرت لها في خواء وهي تعدل من وضع خصلة تدلت على وجهها.. "تبا لهذا اللون الرديء.. أما زال هنالك من تصبغ شعرها بلون نحاسي في يومنا هذا"؟ فكرت نهى وهي تقترب من الـ"كاونتر" في ثقة مصطنعة.. وقالت:

- لو سمحتِ.. ممكن أقابل الأستاذ سامح سكرتير التحرير؟ قولي له نهى الشناوي..

وكأنها ماكينة آلية رفعت الفتاة سماعة هاتف أمامها وهمهمت بعدة كلمات بدت لنهى كتعويذة لجلب الشياطين.. ثم أشارت لمكتب في أقصى اليسار وقالت ببرود روتيني:

- مستر سامح مكتبه هناك.. اتفضلي..

سارت إلى المكان.. طرقتان على الباب الموارب.. وسمعت إذن الدخول.. وكأنه حفل خطبة.. زحام من عدة شباب متناثرين يتحدثون وعاصفة من دخان السجائر.. وبقايا عطر ذابت في المعمعة.

هناك فتاة ترتدي ملابس ضيقة وتضع جالونا من مساحيق التبرج.. جالسة في ميوعة تتحدث إلى شاب طويل ذي ملامح ريفية.. يرتدي زي الشرطة ويضحك مداعبا إياها بالـ"بيريه" الذي ثناه في يده كأنة شطيرة.. وآخرون ملتفون حول كمبيوتر يناقشون شيئًا ما.. نظرة عابرة من الكل عليها.. ثم عاد الكل إلى ما كان يفعله.. هنا رأت من يشير لها من غير بعيد أن تأتي وهو مبتسم..

اقتربت منه وهي تسأل:

– أستاذ سامح سعيد؟ أنا نهى.. الشناوي.

رأت ملامحه الجامدة التي فشلت ابتسامة مجاملة أن تعدل من مجون ملحوظ فيها.. أشار إلى مكتب صغير وهو يهتف:

– اتفضلي.. مكتبي أهه.. أهلاً أهلاً.

تقدمت وجلست مقابل المكتب في خجل.. جلس هو خلف مكتبه.. وأعاد ظهره إلى الوراء وهو يصدر أنة عالية:

– أهلاً بيكي وبكل اللي بيجي من ناحية الباشا بتاعنا في كلية إعلام..

ابتسمت في برود.. أكمل مصطنعا خفة الظل:

- إيه؟ مالك؟ انتي داخلة العمليات ولا إيه؟ ههههههههههه..

انطلقت نهى في حديثها:

- لا أبدا.. أنا بس داخلة مكان جديد.. ع العموم إن شاء الله ربنا يكرم ويكون ليا نصيب هنا معاكو..

اقترب سامح منها وتقلصت ملامحه بمجون وكأنك أعدته إلى نحت وجهه الأصلي.. وقال ببطء:

- شكلك خبرة في التعامل.. مع الناس يعني.

شكرته.. فوقف وسار ليقف بجوارها:

- بصي بقى يا نهى.. الدنيا هنا في صالة التحرير هتكون عايزة شغل في الأول.. انتي أول مرة طبعا محررة؟

أومأت برأسها فأكمل مشيحا بيده في عصبية وكأنه في عراك:

- طب بصي بقى.. انتي في الأول هتروحي مع منى صبحي في الحوادث.. ودي لعبة المبتدئين.. وكلوا بيبتدي فيها..

دار السيناريو الإنساني في رأسها في توتر.. "حوادث؟ مقتل ومصرع وإلقاء القبض.. فلان انتحر تحت وطأة الظروف.. الجريمة غالبا وكثيرا ما تأتي من بيوت فقيرة.. أو نتيجة سلبية لشيء ما قدر هو المال.. أو الشرف..

منازل كئيبة.. شهود مرتبكون.. وخيالهم المريض المكبوت يضخم التفاصيل.. قاعات محاكم.. قضاة.. نيابة متعنتة تحتكم إلى أدلة واهية لفقت بعجالة.. طب وماله.. معلش شويه شقا.. سنتين كده ولا حاجة وابتدي اشتغل.. واتعرف.. وبعد كده أبقى قديمة.. واطلب أروح تحقيقات.. أو متابعة محلية.. أو.. أو سياسة مثلا.. يا سلام يا بت يا نهى لو تلعب معاكي وتوصلي باسمك لجورنال زي... مش مهم استحمل البهدلة والتنطيط في الأقسام.. وبعد كده هتبقى بستان فاكهة"..

قالت في سرعة: حوادث؟ يعني تنطيط في الأقسام بقى وكده؟!

تجمد هو لوهلة.. ثم حدق فيها وكأنها مخلوق فضائي هبط لتوه.. ثم انطلقت حنجرته المشروخة في ضحكة مجلجلة طوحت رأسه الأصلع إلى الوراء.. (أقسام؟) ههههههههه تنط.. هههههههههههههه..

نظرت له في غضب وهبت واقفة.. غالب ضحكه وهو يشير لها معتذرا بيده.. وقال:

- أقسام إيه يا بنتي بس؟ دا انتي أبيض خالص.. ثم عاد إلى بروده السابق في ثانية:

- بصي يا نهى.. انتي لسه قدامك كتير أوي علشان تروحي أقسام.. اللي بيروحوا أقسام دول.. "الملكي".. إنما البداية بتبقى سرفيس.. ودول

بيقعدوا زي الشطار كده.. ورقة وقلم.. وياخدوا خطوط عريضة بتيجي من قسم الإعداد اللي هو "الملكي" وبعد كده تورينا بقى خيالك الجامح.. يعني مثلا.. مثلا فلان اتقبض عليه في سرقة مخازن.. انتي بقى تبتدي تقولي للناس مين هو.. وبيشتغل إيه.. عاطل بقاله كام سنة.. شخصيته قدام مراته.. خيانته ليها اللي وصلته لمحاولة انه يجيب فلوس كتير يصرف بيها على – للأسف – اللي حبها.. كده بقى.. وهكذا.. لحد كلام وكيل النيابة.. جملة سطر واحد.. ويعملوا لنا عليها عمود.. أو ربع شمال فوقاني.. وأشار إلى رأسه وأكمل: وصلت؟!

نظرت له نهى في حيرة وقالت كلمتها المتوقعة: مش فاهمة حاجة..

عاد سامح إلى مقعده وجلس وهو يشير لها بغطرسة أن تجلس.. وعاد ليقول بطريقته المداهنة المملوءة بالسخرية:

– يا نهى.. كل المحررين بيبتدوا "تفصيلجية". سرفيس يعني.. كام كلمة تشويق.. شويه شطة.. إثارة.. تفاصيل مسلية.. القارئ ما يزهقش.. يقعد يتخيل الحوار اللي مكتوب كده ويتفاعل.. آه.. يا خسارة.. يا عيني.. يا بخته.. كده.. تفاعل يا نهى.. أمال نبيع ازاي.. انتي شايفة مني صبحي دي؟ ثم أشار من خلال الباب الزجاجي إلى الفتاة التي رأتها نهى تمازح مندوب الشرطة.. أهي دي ابتدت من ست شهور.. "تفصيلجية"

برضه.. بس بصراحة مجهودها وصلها للـ"ملكي" بسرعة.. بقت دلوقتي مفيش حد من الداخلية ما يعرفهاش.. وبقت بتجيب لنا نص حوادث الطبعة..

حدقت نهى في وجهه.. وهي تنقل بصرها بين الفتاة ووجوه الموجودين خارجا.. هذا "المولد" الدائر على مقربة منها.. وأدركت ماذا يعني سامح بالـ"مجهود" الذي تبذله تلك الفتاة مع مناديب وأمناء الداخلية.. إذًا الأمر برمته خيال شبق مريض.. فبركة صريحة.. تقلصت أحشاؤها.. جملة من هنا.. كلمتا ود مع أحد أمناء الشرطة.. ربما تناولا مشروبا في كازينو توطيدا لـ"الصداقة".. تخيلت نفسها "بتدردش" مع مخبر تقليدي يرتدي معطفا كاكيا ويرتدي قلنسوة صوفية مغبرة.. لزج.. أسنانه الصفراء القذرة.. ضحكة سوقية.. "عليَّ النعمة دا انا كنت أسد في الكمين امبارح.. ساعة ما قولت لك على الواد اللي اتقفش بنص كيلو بانجو وحبوب الفياجرا".. ثم النظرة الشهوانية التي تعرف أنها ستتركها تلتصق بتفاصيل جسدها صاغرة.. تلك التفاصيل الصغيرة.. نظرة.. احتكاك عارض.. مصافحة ماجنة.. ذلك الهراء هو ثمن فتات أخبار وحوادث معظمها – بل إن لم يكن كلها – خيال مريض بدوره.. بطولات وهمية يحكيها الأمناء والمندوبون على سبيل "الفشخرة"..

– سرحتي ليه؟ كنتي فاهمة ان الدنيا صحافة أفلام.. بتوع الخبر والمصدر والمقال السياسي؟

أعادتها جملته إلى واقعها.. نظرت له في لا مبالاة..

اتسعت ابتسامته وقال:

– نهى.. عارفة يعني إيه جرنان بيبتدي؟ إحنا عايزين قراء.. يعني فلوس.. الناس بقت بتزهق من كتر اشتغالات "القومية".. وإحباط وتقتيم "المعارضة".. إحنا بقى بعيد عن كل ده.. إحنا بتوع حوادث وتسالي.. اجتماعيات ممكن، فضايح طبعا يا ريت.. كل اللي يزود مبيعات أنا معاه..

تكلمت نهى بكل الإحباط الذي انفجر في أحشائها وقالت بخفوت:

– بس أنا عمري ما تخيلت ان البداية كده يا أفندم.. حتى لو...

قاطعها بحزم وهتف ببرود:

– تحت مفيش اختيارات يا بنتي.. عندك العبد لله أهُه.. قعدت سبع سنين تفصيلجي في "الصفرا" كلها من أول بتاعة ولعة المسلمين والمسيحيين.. لحد بتاعة الشريطة السودا على عينين البنات بتوع النت.. وكنت شايف الليلة "مهنة المتاعب" والكلام السقعان ده..

رددت في سخرية حزينة:

– صفرا؟! دا انا كنت فاكرة اللقب ده هعيش أحاربه.. مش أبتدي بيه..

كتم ضحكة أخرى وقال:

– تحاربي إيه بس؟ يا نهى اللي فوق حاجة واللي تحت حاجة تانية.. كلي عيش زي أي حد.. إحنا كلنا بياعين كلام.. من الكبير للصغير.. بنبيع كلام.. بس في كلام بيبيع.. وكلام بيضرب لفوق أوي.. وفي كلام ممل.. وكلام ما يتصدقش.. وفي كلام ممكن الناس تمشيه.. إحنا بقى هنا بنقول الكلام اللي ممكن الناس تمشيه.. وبعد قراية العدد ينفع برضه يتفرش تحت الاطباق ع الفطار..

الآن ترى نهى الصفحة البيضاء التي تحمل عبارة حلمها مفروشة أسفل "رصة" أطباق على سفرة خشبية رديئة.. واسمها يتلطخ ببقع الزيت.. الدمعة تصارع مقلتيها تحاول الإفلات.. "هي كده؟ هي دي أحلام السنين؟".. مد يده بمنديل ورقي إليها وهو ينظر لها لأول مرة نظرة تعاطف آدمية.. وقال:

– معلش يا نهى.. عادي ممكن تبكي في الأول.. بدل ما تبكي متأخر.. يا إما بقى تتعاملي في أي مجال تاني.. سكرتارية.. خدمة عملا.. بنوك برضه ممكن.. بس ورق.. يبقى هتعيشي تحت كتير.. معانا أو مع

غيرنـا.. وبعـد رحلـة عـذاب.. أقـصى وصـول للـي زينـا اليـومين دول.. "معارضة".. برضه هيبقى فيها "داخلية"..

قال كلمته الأخيرة ثم صمت لوهلـة.. وانفجـر في ضحكة مـشروخة عصبية.. ترددت بين جدران عقلها كسيل مـن أعمـاق سـقر.. عـاد ليقـول في سرعة ومرح صادقين وكأنه يتفادى الخوض في القتامة:

- ثم إن اللـي موصـيني عليكـي قـاللي انـك بتكـتبي كـويس.. يعـني هتفصلي حلو..

ابتسمت رغما عنها.. أما سامح فقد عاد لسخريته شبه الوقحـة وهـو ينادي الفتاة إياها الـتي دلفـت إلى المكتـب وهـي تقـول بريـاء واضـح وكأنهـا تخبره بأنها تنافقه:

- باشا.. عيني..

قال في وقاحة:

- سيبك من معالي الباشا دلوقتي.. ويلا خدي نهى وشوفيلها مكتب في الورشة.. ومن النهارده هتفصلك هي وتيمور.. ظبطيها يا برنسيسة..

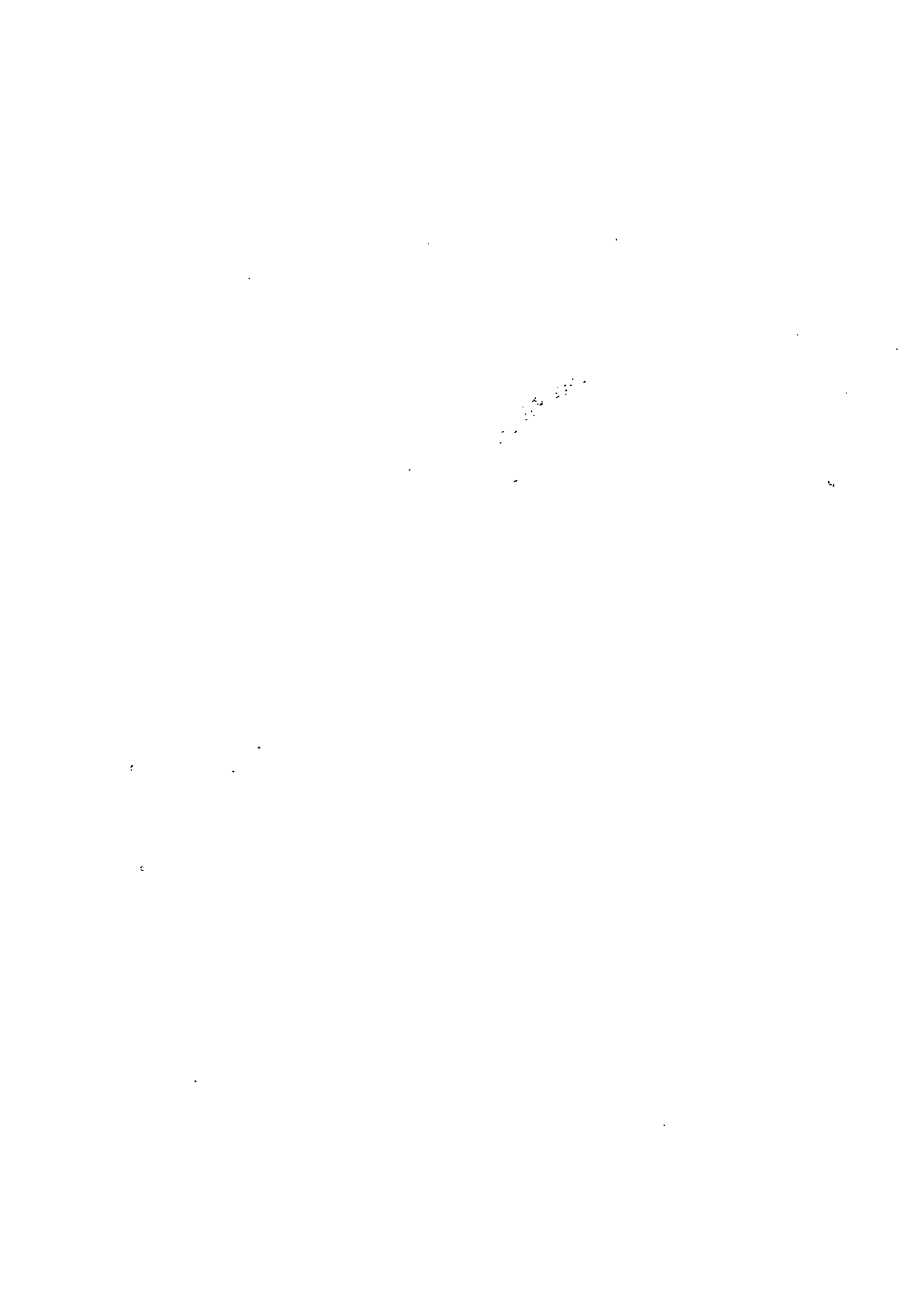
رمقتها الفتاة في فـضول مبتـذل.. فبـدت نظرتهـا وكأنهـا اصـطبغت بنظرة الأمناء والمخبرين اللزجة.. وهي تقول في رياء واضح:

- انت تؤمر يا باشا..

نهضت نهى وهي تنظر لكليهما في قهر.. ثم خرجت من المكتب.. ثم إلى الصالة.. ثم تحولت خطواتها إلى شبه ركض.. تلاحقها نظرات الفضول.. غادرت مقر الجريدة وهي تبكي.. تبكي كالأطفال بصوت مرتفع.. ثم توقفت أمام المصعد.. وظلت واقفة لدقيقتين كاملتين.. ثم استدارت.. وعادت إلى المكان بهدوء وتثاقل.. وهي تتذكر بمرارة كل أحلامها التي انسكبت في المرحاض لتوها.. رفعت بصرها فوجدت الفتاة واقفة تنظر لها في مواساة.. فنظرت لها نظرة طويلة.. طويلة جدا.. نظرة فهمت منها نهى كل ما ينبغي فهمه.. فابتسمت بمرارة وقالت للفتاة:

– ممكن أول حاجة أفصلها تبقى اسمها "بستان الفاكهة"؟

غمزت لها الفتاة وهي تبتسم لها بدورها.. ودلفت كلتاهما إلى الداخل بهدوء.



الرجل الذي قتل خمسة



لن أتهم أحدًا بالنمطية الفكرية إذا تخيل المريض النفسي أو المجنون شخصا شاذ الأفعال.. مرعبا محملقا دوما.. أو يضع على رأسه وعاء معدنيا وهو يركض نصف عارٍ؛ لأن النمطية الفكرية هي لوحة الخلفية لتفكير الملايين.. بل المليارات من البشر العاديين.. لكن أن تكون أنت في حذائي – كما يقول الأمريكيون – فهذا يختلف.. وقد تجد نفسك تهتف في استغراب: "ياه.. هو ده الجنان؟".. نعم.. مداواة ألم الجسد قد أراها مهمة صعبة وشاقة.. لكن آلام النفس تحتاج إلى توازن عجيب.. توازن يذهلك تماما كلاعب الأكروبات الذي تراه في السيرك يسير على سلك رفيع.. هكذا أعيش.. لاعب أكروبات.. سائر الحبل الذي قد لا تدهشك فقرته في أيامنا تلك.. التي لم يعد فيها شيء يدهش أحدا.. عندما بدأت مجال عملي كطبيب أمراض نفسية وعصبية.. كنت ما زلت كديدن الشباب المتحمس.. طلاب نفسية وعصبية الدءوبين الذين رسموا صورة د. عادل صادق في أذهانهم.. الوصول.. والخبرة.. ثم الشهرة.. أما بعد عبور أول حاجز في الطريق الملتوي المضبب المفضي إلى الجوانب المتقيحة.. والمقززة بنفس بشرية.. فالأمر يتبدل.. وتأتي أول نوبة قيء.. نعم باعتراف العلم هناك نفوس تولد ببذرة الشر.. والنشأة هي طبيعة نمو البذرة.. النشأة هي التي تحدد إن كانت بذرة

الشر ستنمو لتصير غابة شيطانية.. أو مرجا يانعا.. بدأت العمل كمتدرب في أحد المصحات الخاصة.. باهظة التكاليف.. مما يخبرك بأنه مصح "ولاد ناس".. أطراف القاهرة حيث الرحمة من ضجيج وزحام العاصمة الرمادية – كناية عن تلوثها – أشرفت على حالات عولجت وتعافت.. وما زلت أرى وجوها أراها منذ أتيت.. أي منذ عامين ونيف.. وأغلب الظن أنني سأراها لعدة أعوام مقبلة لا يعلمها إلا الله.. انقلبت رؤيتي للنفس البشرية.. وعشت خبرات تألم فيها أناس ألما لا تحاول أن تفكر حتى في تخيله.. وأعترف لكم اليوم اعترافا خطيرا.. اعترافا قد يدمر مستقبلي المهني كله كطبيب نفسي.. لقد عايشت من الحالات ما يعترف الطب النفسي بوجوده.. عدا تلك الحالة.. هزت ثقتي بعقلي.. نعم أعترف أنني كطبيب لم أخرج بتشخيص لتلك الحالة.. ولم يبدُ لي وجود أي خلل في التركيبة النفسية لتلك الحالة.. لكنه كان هناك خلل لم يستطع التحليل النفسي فك خيوطه.. وذلك لعلاقته المتشابكة مع الواقع.. والخيال.

اليوم سأنتهك قانونا مقدسا في عالمنا.. اليوم سأفرغ على الأوراق تقريرا وتحليلا نفسيا لتلك الحالة الغريبة مع مراعاة عدم ذكر أسماء حقيقية ولا أشخاص بأعينهم..

سأترك لكم السطور التالية تحكي عن صاحب الحالة.. وسأترك لكم

أنتم كبشر عاديين وغير متخصصين التعليق والحكم.

***

يمكننا أن نناديه هنا باسم عم فاروق.. سبعة وخمسون عاما.. كهربائي بارع جدا.. و"صنايعي" مثلما يقولون..

ملخص حكاية عم فاروق أنه ذات يوم توجه إلى قسم الشرطة واعترف أنه قام بقتل خمسة أشخاص وأدلى بأسمائهم وأوصافهم.. وكالمعتاد تم حبس الرجل وفتح التحقيق.. لكن نتيجة التحقيق أسفرت عن مفاجأة غريبة.. المفاجأة أن أولئك الأشخاص لم يتم العثور على جثثهم.. ولا بقاياهم.. بكل بساطة.. لأنهم لا يزالون أحياء!! نعم أحياء وأنكروا معرفتهم بالأمر.. بل وحتى لم يعرفوا من هو المدعو فاروق.. وتمت إحالته إلى مستشفى الأمراض العقلية.. وهنا تم تحويله إلينا كنشاط مساعد نقوم به كمصح خاص لوزارة الصحة.. وتوليت أنا حالة عم فاروق.. جاء إلى هنا في حالة غريبة.. كان يتكلم بصورة طبيعية جدا.. وفاجأني مظهره وشكله.. الكتفان العريضتان.. و"الكرش" الذي يدل على نهم وصحة.. الصلع الزاحف على الرأس.. ملامح طيبة تذكرك بخال أو عم لك.. لكن النظرة الجاحظة هي التي أثارت اهتمامي.. وبدأت الجلسة الأولي بيني وبين عم فاروق.. الأولى.. والأخيرة.

دخل التومرجي برفقته.. صرفت التومرجي وطلبت منه أن يجلس كيفما يستريح..

نظر لي وقال: هو أنا هنا ليه يا بيه؟ هو مش مفروض في نيابة تحقق وكده يعني؟

قلت له: قولي يا عم فاروق.. انت اعترفت بقتل خمسة.. ممكن أعرف انت قتلتهم ليه؟

نظر لي وجحظت عيناه وبدا غاضبا وهو يقول:

- تاني؟ هو انا مش اعترفت؟ هي قصة؟ أنا مش ناقص تقليب مواجع الله يكرمك بقى..

- طيب اهدى.. اهدى واحكيلي علشان نعرف نتكلم يا عم فاروق..

ألقيت نظرة سريعة على ملفه.. وسألته:

- قولي يا عم فاروق.. هو مش الظابط قالك ان اللي انت قلت عليهم اتقتلوا دول عايشين وزي الفل؟

رد بكل برود: يقول اللي عايز يقوله.. هما مش عايزين يقولوا ان هما ماتوا.. بيداروا علشان أنا قتلتهم علشان كانوا ولاد كلب فسدة.. ظلمة.. فهمت؟ الحكومة مش عايزة تقول للناس ان دول اتقتلوا علشان وساختهم..

ومش عايزة الناس توصل لمرحلة "الفوقان" اللي انا وصلت لها..

أثار انتباهي رفضه لتقبل أمر واقعي.. هنا بداية خيط جيد..

– طيب قولي الأول.. انت ممكن تثق فيَّ؟

رد بسرعة: لا طبعا..

– ليه يا عم فاروق؟ أوعدك ان مهما قلت هاصدقك.. ومهما قلت عمري ما هعمل حاجة انت مش عايزني أعملها أو أقولها.. وافتكر كويس.. ان انت هنا في مصحة خاصة.. مالناش دعوة بالحكومة أو الداخلية.. انت جاي هنا علشان تقولي انا كل حاجة.. وبعد كده هبعت تقرير.. أقول فيه الصح.. والصح ده ممكن انت تقوله.. وممكن أنا أساعدك تقوله..

هنا رمقني بنظرة ساخرة وقال:

– شوف يا دوك.. أنا معايا دبلوم.. بس متعلم وفاهم أكتر مانت متخيل.. سيبك من قعدتي على القهوة مع الرعَاع.. دي اجتماعيات مش أكتر.. تقريرك هيقول في النهاية إني مجنون.. مهما قلت انك "مصدق".. وضغط على مخارج كلمته الأخيرة بقوة..

أثار دهشتي.. هذا الرجل بداخله الكثير..

ابتسمت رغما عني وأنا أقول:

- يا عم مين قال إنك جاهل لا سمح الله؟ جربني ومش هتخسر حاجة..

ظل يرمقني صامتا لأكثر من دقيقة.. ثم قال وهو يعدل من وضع جلوسه:

- شوف يا بيه.. أنا قتلت خمسة.. رجلين أعمال وابن واحد فيهم.. ودكتور كبير.. وواحدة مومس..

- انت قولت انهم فسدة.. وعلشان كده قتلتهم.. طب هو كل فاسد يتقتل؟ هو انت مش بتقول إنك قاري وفاهم؟ مش عارف يعني إيه قانون؟

ضحك ضحكة عالية مشروخة وهو يحاول أن يقول كلمتي الأخيرة:

- قا.. ههههه قانو.. نههههههههههههه.. ثم أنهى ضحكته فجأة ونظر لي نظرة متسعة زائغة وقال بفحيح عال: والقانون ده مين اللي حطه؟ هاه؟

رددت: الحكومة برأي الشعب.. دستور يا عم فاروق..

عاد إلى جلسته مترددا وقد أحس أنه أخافني وقال وهو يداري عينيه:

- والقانون ليه معمول للغلابة بس؟ ليه مش بيتطبق على الكبار؟ ليه في دايما ناس بتهرب منه بفلوسها؟

- ودول فاسدين هربوا من القانون.. ماشي.. انت بقى قتلتهم ليه؟ قصدي عملوا فيك إيه؟

رد باقتضاب: مش لازم يعملوا فيَّ حاجة علشان أقتلهم.. هما عملوا في ملايين غيري.. سرقوا شقى ناس غلابة كتير.. استقطعوا غلابة كتير.. كبروا على دم كتير أوي.. تعرف يا دكتور؟

- قول يا عم فاروق..

نظر لي واغرورقت عيناه بدموع كثيفة.. وأكمل:

- أنا بقالي سبع سنين بخطط أقتلهم.. تعرف؟ أنا كل يوم قعدتي على القهوة مع ناس غلابة.. دورين "دومنة".. واقعد لحد الساعة تلاتة الفجر.. أسمع شكاوي محمد شحتة العلاف..

كان عنده بنت صغيرة.. أول فرحته يا عيني.. تمن سنين.. بس ربنا يا عيني خلقها بعاهة.. لا مؤاخذة رجليها لازقة في بعض.. وعقلها مش كامل.. داخ.. لف مصر كلها على علاج على نفقة الدولة..

واتبرع واحد من رجال الأعمال بعلاجها برة في ألمانيا.. بس كان

حرامي وفاسد.. اتقبض عليه في قضية مواد مسرطنة.. واتحبس.. قامت المستشفى الألماني رجعت البت على مصر لما انقطع تمويل العلاج.. (مسح دموعه وتمخض).. قضايا ومحاكم بقى.. وجه واحد تبعه في يوم وقال لشحتة إحنا آسفين.. بنتك مش هنقدر نكمل علاجها.. هي دلوقتي في مستشفى "كذا" الحكومي..

الراجل يا عيني بقى بيضحك ويدعي عليهم.. وراح قايم من ع القهوة.. ومن ساعتها اختفى.. ما لقيناهوش يا دكتور.. (قالها واتسعت عيناه وعادت نظرته الزائغة وأكمل): اختفى..

وبعديها بقى.. شوف النصيب.. رجل الأعمال إياه.. خرج من القضية زي مليون غيره.. وبكل بجاحة رفض حتى يقابل أم البنت اللي راحت تترجاه يكمل علاج البنت.. وشحتة لسه ما نعرفش مكانه.. الراجل راح يا بيه..

وأخذ يهز رأسه في أسى.. ثم طلب مني ماء.. طلبت من عامل البوفيه عصيرا وماء وقهوة لي..

عاد عم فاروق يتكلم بالأسى ذاته:

- وعندك لا مؤاخذة التاني ده رجل الأعمال بتاع مجلس الشعب..

كانت "جماعة" الواد راضي النقاش بتشتغل عنده في البيت.. لا مؤاخذة هو

كان بيقول لنا مربيه للعيال وكده عشان المنظر..

وكلنا كنا عارفين ان الباشا عياله كبار.. في جامعات.. ابنه الكبير واد مايع وبايظ.. سرق دهب أمه ولزقها في البنت الغلبانة وهو كان عارف ان ابنه حرامي وبتاع مخدرات.. وكلنا عارفين ان الواد راضي واد غلبان.. ومراته لا يمكن تكون إيديها طويلة.. يا دكتور دي داخلة بيوتنا كلنا.. راضي راح للواد وقعد يبوس رجله.. والله يا ابني راح له الكافيتيريا اللي بيقعد فيها في الزمالك.. الخواجاتي دي.. ووطى على رجله قدام الناس وقاله:

يا بيه والنبي قول الحق.. البت سرقت؟ لو ضاعت منك الصيغة يا بيه أنا هسرق واجيب لك الفلوس تاني بس طلع البت من السجن.. (تحشرج صوته بدمع خانق وأكمل): قام الواد رفصه في بطنه رماه على الأرض.. وطلع يجري.. تخيل يا بيه الجبروت بتاع العالم دي..

ناولته منديلا.. وقلت له بهدوء: كمل يا عم فاروق..

مسح دموعه وعاد لينظر لي وكأنه محرج من دموعه أمامي وابتسم وهز رأسه وعاد يقول:

- أما بقى الدكتور الكبير.. المشهور.. اللي بيطلع في التليفزيون.. كان راح له سعيد السواق علشان بعيد عنك يا دكتور أمه عندها فشل كلوي..

والدكتور قال له ان في متبرع عنده ممكن ياخد ميت ألف جنيه في الكلية.. الواد جاله اكتئاب وقعد يعيط زي النسوان.. باع الميكروباص ما جابش خمسين ألف.. أصله قديم موديل تمانينات.. قعدنا نلم له كملنا سبعين بالعافية.. وقابلنا المتبرع.. قعد يساوم ابن الـ .... كأنه بيبيع شقة.. المهم وافق.. قام الدكتور قاله أنا أجرة إيدي خمستاشر ألف.. وكارمه كمان.. بعد الذل ده يا دكتور.. عملت العملية.. وبعدها بأسبوع ماتت.. الدكاترة قالوا مضاعفات العملية.. بس الواد عرف من رئيس قسم الجراحة بعد كده ان الكلية ما كانتش بتاعة المتبرع.. وان ده واحد كان جايبه الدكتور يمثل.. وان أصلا الكلية مش مطابقة لأنسجة الست الله يرحمها.. والله أعلم جابها منين.. وراحت الولية.. ثم أطرق برأسه وأخفى وجهه بكفيه.. ومن بين كفيه المغلقتين رأيت خيط الدموع يسيل نقاطا.. وهو ينهنه بصوت خفيض.. تركته برهة.. ثم عاد لي بوجه محتقن وعينين منتفختين.. طلب مني سيجارة.. أعطيته واحدة.. أشعلها وأخذ يمتص دخانها في نهم:

– أما بقى الست.. دي أصلا تستاهل تموت ألف مرة.. (ظهر على ملامحه ذعر واتسعت عيناه عن آخرهما).. دي قوادة يا بيه.. بتستلقط البنات الصغيرة وتشغلهم في الدعارة يا بيه.. اتلمت على أخت واحد غلبان عنده محل بقالة في الحتة.. البت بقت تتأخر بره.. ترجع الحتة لابسة

محزق.. وحاطة ماكياج زاعق.. وانت لا مؤاخذة يا دكتور عارف ده معناه إيه في منطقة شعبية شويه.. والواد غلبان وشخصيته ضعيفة.. وأبوهم عجوز فوق الستين.. ومشلول.. والأم تعيش انت.. وهو متجوز واحدة قوية يا بيه.. بقت تعايره باخته.. وهو بيجي ع القهوة.. ويشتكي لعمك فاروق.. قمت رحت ورا البت في يوم.. لقيتها مع الست دي في كباريه فندق خمس نجوم.. ومقعداها مع اتنين رجالة.. ومعاهم بيجي اربع بنات من نفس الشكل والسن.. قمت قلت للواد يحبس أخته وانا هابلغ الحكومة عن الست دي.. وبلغت.. وبعديها بيوم خرجت.. كأنها لا مؤاخذة بتطلع لسانها لكل الناس.. وفضلت تحارب لحد ما جابت البت تاني.. والبت راحت في السكة الوسخة.. وبقوا الناس في الحتة يعايرو الواد ويقولوله يا خروف.. والواد تعب.. وأدمن البانجو.. وبقى لا مؤاخذة شبه الموبوئين اللي بتشوفهم متلطعين على النواصي في الحواري وقدام دواليب المخدرات.. ورمى مراته وابنه وبقوا عايشين على الإحسان يا دكتور.. بيشحتوا..

بدا كلام الرجل منطقيًا جدًا ولا تشوبه شبهة الاضطراب النفسي.. الرجل حكى بواقعية شديدة عن أسباب ودوافع قد تكفي لقتل أناس ملوثين.. لكن لماذا يحكي الرجل دوافع وأسبابا لجريمة وهمية؟ الرجل يؤكد بشدة أنه ارتكب الجريمة فعلا.. والسلطات تنفي وقوع أي جريمة.. بل وتؤكد وجود

هؤلاء الأشخاص على قيد الحياة.. إذًا لماذا اختلق هذا الرجل جريمة وهمية؟

عدت أقول له:

– طيب يا عم فاروق.. أنا مقتنع مية في المية بالأسباب دي.. بس تعالى بقى نتكلم في حاجة.. اعترافك في التحقيق بيقول إنك قلت إنك خطفتهم الخمسة.. وحطيتهم في مخزن في إمبابة.. وبعد كده ربطتهم على كراسي حديد.. وكممتهم.. وبعد كده حطيت على جسم كل واحد دايرة كهربا.. ووصلتها بفولت عالي.. وحطيت رجليهم في ميه.. وعملت توصيلة للميه بالكهربا..

وقلت كمان إنك اخترعت الدايرة دي بحيث اللي يشيل فيهم رجله من الميه هتضربه كهربا ألفين فولت.. ولو حاولوا يقاوموا أو يهربوا معناها الموت.. وفضلت تسخن في الميه بوابور لحام..

يعني بتعذبهم أكتر.. لأن اللي هيشيل رجله من الميه هيموت.. الكلام ده صح؟

رأيت الجذل والطغيان لوهلة في عيني عم فاروق وهو يبتسم ابتسامة بدت لي مخيفة لأول مرة..

وقال:

– صح.. وكمان كل ده كلام فارغ بالنسبة للي عملوه في حياتهم.. و..

وكلهم شالوا رجليهم أول ما الميه ابتدت تغلي.. هههههههههه.. ما عدا الدكتور.. أغمى عليه من الوجع.. هههههه فوقته.. وسخنت الميه تاني بالوابور.. رجليه كانوا بيتسلقوا.. بس برضه في الآخر شال رجله..

نظرت له محاولا فهم الخواطر الرهيبة التي تدور في رأس هذا الرجل.. فقلت:

- يعني يا عم فاروق انت مصمم انهم ماتوا؟

- آه يا دكتور ماتوا.. متكهربين ومحروقين.. وفي ستين داهية كمان!

قررت أن أستخدم أسلوب الحقائق المباشرة.. الذي عادة ما تنتج عنه صدمة في حالة الهلوسة أو الاضطراب العقلي.. فقلت:

- ولو قلت لك انهم عايشين.. وقالوا انهم عمرهم ما شافوك.. ولو قلت لك كمان اني ممكن أجيبهم لك هنا تشوفهم بنفسك..

رمقني بنظرة خواء رهيبة.. ثم قال كلمته الأخيرة وهو ينهض من على مقعده:

- عادي.. ممكن ييجوا.. وممكن كمان أقول مش هما دول.. وتقفل تقريرك على اني مختل عقليا.

تخيل جريمة وعاش تفاصيلها نتيجة.. نتيجة.. أي كلام "مجعلص" في علم النفس معناه اني مجنون.. ويا ريت أرجع المستشفى بكره.. بس صدقني.. هما كده كده ميتين!

ولمحت بريق عينيه الغامض وابتسامته العجيبة..

هنا لم أكن أريد المزيد.. هنا فهمت ما يحاول عم فاروق قوله.. هو مجنون باعترافه..

وتم إغلاق التحقيق.. وعاد عم فاروق نزيلا في مستشفى الأمراض العقلية..

ولكن ما أريد قوله لكم أنتم: ما رأيكم في تلك الحالة؟ أتبدو تقليدية بالنسبة لكم؟ لكن مهلا.. أخبروني بعد قراءة هذا الخبر من جريدة "صفراء" مشهورة.. صدرت بعد إيداع عم فاروق المستشفى بعدة أسابيع:

"الضحية الخامسة"

"ارتفاع عدد الوفيات صعقا بالكهرباء جراء مشاكل في توصيلات المنازل"

"وزارة الطاقة والكهرباء تنفي وجود خطر أو وجود خطأ فني"

كتب (...) – القاهرة

بعد ظهور حالة الوفاة الخامسة صعقا بالكهرباء.. وهي سيدة مطلقة تعيش بمفردها في شقة في الجيزة.. بعد الحالات الأربع السابقة على مدى شهرين.. التي توفيت كلها من جرَّاء الصعق بالكهرباء - من بينهم طبيب شهير - حيث أكد كل شهود حالات الوفاة أن المتوفى يتلقى صاعقة كهربية شديدة عندما يلمس أي مصدر كهرباء أو حتى يقترب منه فتضربه صاعقة تفضي إلى الوفاة.. تقدر قوتها بأكثر من ألفي فولت.. وتسبب حروقا من الدرجة الأولى.. وبعد معاينة الشرطة في كل حالة كعادتها تصرح بأن الوفاة لا تحمل شبهة جنائية.. وأن المتوفى لقي مصرعه صعقا كوفاة قدرية.. لكن نحن من مكاننا هذا سنكون أول من يحذر الناس.. وندق ناقوس الخطر.. ونقول للناس إن هيئة الكهرباء تتلاعب بتوصيلات المنازل.. أو تتستر على مشروع ما يسبب اضطرابا في توزيع الكهرباء.. وكعادتها أيضًا نفت وزارة الطاقة وشركة كهرباء مصر وجود أي خلل فني أو تلفيات في توصيلات المنازل قد تسبب صعقا للناس من دون سبب.. لكن ظهور خمس حالات في شهرين في مناطق مختلفة لا بد أن يثير التساؤل.. وسنترك التساؤل مفتوحا لكل الناس: أمن الطبيعي أن تظهر خمس حالات وفاة صعقا في شهرين؟

(انتهى الخبر).

* * *

غابات الجميز

(مذكرات حاقد طبقيا)

"تنويه واجب: الذي ستقرءونه الآن هو تفريغ لمذكرات شخص ما.. لكنها عولجت بشكل أدبي على أنني أنا ساردها.. ومعالجتها لم تغير في لبها وأصالتها؛ لذا وجب التنويه بأن المذكرات ليست مذكراتي"..



البداية

عندما كنت طفلا صغيرا كنت أشتهي أشياء كثيرة.. وكنت أغضب عندما لا يأتيني ما أريد.. وكنت صغيرا.. أغار.. أغار من خالد لأنه يمتلك لعبة ما ليست عندي.. وأغار من رامي لأن والده أرسل له من إحدى دول الخليج – مكان عمله – هاتفا محمولا.. (وقد كان هذا معجزة في أوائل التسعينات).

وأغار من فلان لأنه يرتدي "جاكيت" غاليا جدًّا يحمل إحدى الماركات الشهيرة.. كنت – وأنا طفل – أركض لأمي وأطلب منها ما أشتهي؛ لأن والدي في حداثتي كان شخصية رهيبة.. كان عاملا كادحا يحمل عبء أسرة كاملة وحده.. وفوق همومه تلك يحمل "قفة" مليئة بحطام أحلام لم يحقق منها شيئًا.. وأسى.. وإحباطا.. وإخوة كارهين لبعضهم وكأنهم إخوة كارامازوف.. فكان دائمًا عكر المزاج.. يحتسي الخمر.. ويقلع.. فيحتسي "البيرة" على سبيل أنها "خفيفة ومش بتاعة عادة".. فكان كتلة أعصاب مشتعلة.. وكان يضربني وأختي أحيانا لأسباب تافهة.. (أخبرني بالله عليك ما الذي يدفع أبا أن يوسع ابنه ضربا وصفعا وقرصا لأنه – الطفل – كسر كوبا في المطبخ من دون قصد فأفزع نومه).. فكيف أذهب إليه؟ كنت أذهب

لبطلة حياتي الكادحة (أمـي).. وأقـول لهـا: "اشمعنـا فـلان عنـده كـذا؟".. فكانت بسرعة برق في ليلة عاصفة تحتوي غيرتي وعـوزي للـشيء بطريقتهـا الساحرة.. وأحيانا بشرح الأمر لي بكل عملية وصراحة: "مـا هـو مفـيش يـا حبيبي فلوس لده.. ما انـت عـارف بابـا بيجيـب فلـوس كـام.. إلخ".. لكـن عندما بدأت أكبر فوجئت بأن اشتهاء الأشياء لا يفـارقني.. وكانـت الـصدمة والأسى أن الغيرة والاشتهاء ثوابت إنسانية.. لا تترك المرء إلا بالتـصوف.. أو بالرهبنة.. بل ويكون في الأمر صراع وجهاد نفس أيضًا!!

* * *

أولى محاولات الهروب

كنت طفلاً أحاول دائمًا أن أجد ما يعوض نقصي للمغريات الطفولية التي كانت تلح على ذهني الصغير.. فكنت أحاول أن أجد دائمًا ما يميزني.. فكنت أقرأ.. أقرأ كثيرًا.. وأحلق في عوالم خيالية مليئة بشخصيات قصص "ميكي" و"بات مان" و"رجل المستحيل".. هنا لا بد أن أذعن لضميري وأوضح مدى حبي لوالدي (الذي لا شك أنك كرهته في الأسطر السابقة).. وعن مدى عرفاني بالجميل لهذا الرجل.. الرجل الذي وضع أول قصة في يدي.. الرجل الذي علمني كيف أحرك أول قطعة شطرنج وأنا بعدُ في الخامسة من عمري.. الرجل الذي بكى بين يدي وأنا في العاشرة من عمري مذعورا ولا أفهم كيف فعلها.. الرجل العامل.. الحاصل على شهادة متوسطة.. لكنه يعرف أبطال روايات.. ويعرف نظريات علمية وسياسية.. يعرف ميعاد حلقات العلم والإيمان.. قرأ كل أعمال أنيس منصور بلا مواربة أو رياء.. رجل شارع مثقف.. واسع الأفق.. رجل بـ"قفة" مليئة ببقايا أحلام.. جلس أرضا يحاول لصق أجزاء تلك البقايا.. فصنع مني ما أنا عليه الآن.. أبقاه الله وحفظه..

* * *

نهش جديد

وظلت محاولاتي للهروب من "النهش" الإنساني المعقد في داخل كل منا.. الذي يبدأ حالما نشتهي شيئًا ما.. فحلقت أكثر في خيالي.. وقرأت.. وقرأت.. وظل خيالي هو ملاذي من ذلك النهش.. وتلك الغيرة..

لكن مع مجيء مرحلة المراهقة.. صار الأمر أصعب.. والفرار أصعب.. فكنت أرى فلانا يتكلم عن مشواره لعمته.. وكيف أنها تسكن في فيلا فاخرة في المقطم.. وكيف أن أولادها عندهم "بلاي ستيشن" – مخدرات الأطفال ومعجزة العصور – ويظل يحكي غائظا إياي بأنهم سيعطونه هذا الشيء لأنه صار قديما.. وأن أباهم سيأتي لهم بواحد آخر جديد.. وعدة أيام ويأتي الوغد الصغير متباهيا بأنه صار يمتلك ذلك الصندوق السحري.. فأذهب لأمي كعادتي.. فتتأثر.. فتحكي لأبي.. فـ"أصعب عليه".. فيأخذني إلى العتبة لنبتاع شبيها صينيا رخيصا جدا.. نفس الشكل.. لكنه لا يمت للعبة اليابانية بصلة سوى أنه يشبهها تماما خارجيا واسمه "بولي ستيشن"!! فأفرح قليلا.. وأنسى الأمر.. ومزيد من القصص.. ومزيد من زيارات لمكتبة المدرسة.. واستعارة الكتب والروايات.. ومزيد من الهروب.. وكثير من النهش إياه.. وأنضج.. وأكبر.. وأصير صبيا مراهقا بوجه مملوء ببثور ومشاعر مراهقة مشبوبة.. وأرى فتيات المدارس الإعدادية.. (لأنه تم

فصلنا بداية من المرحلة الإعدادية - تعليم مجاني بقى!).. وتتحرك مشاعري.. وأصدقائي يحكون مغامرات خيالية مع "صحابهم البنات".. وإن كنت أحس دوما بمدى تهويلهم ومبالغتهم في السرد.. وإن كانوا على الأقل "مصاحبين بنات".. وكان الذي له علاقة بفتاة في تلك المرحلة هو سندباد وسوبرمان و"ماكجايفر" - نسبة للحلقات الأمريكية الشهيرة - إذًا كيف أذهب لأمي شاكيًا هذا؟ فالموضوع يعد من ثوابت "قلة الأدب"..

(أروح لأمي أقولها أنا مش عندي "جو"؟)!

فكنت ألجأ لرفيق عمري ووحدتي.. خيالي.. فأتخيل نفسي أحب فتاة ما.. وأحكي مغامراتي معها لأصدقائي.. وأتعلل لهم بأنها تعيش بعيدا إذا سألوني من هي.. أو أنهم يريدون رؤيتها.. وأعود لمزيد من الهروب المحموم.. وأعرف فلانا.. وأدخل بيت فلان.. أجد "دش".. ومزيد من النهش.. وآخذ درسا خصوصيا تشاركني فيه فتاة.. رقيقة جميلة.. فأحلم بها.. وأعرف أنها تأخذ دروس العربي لأنها في مدرسة أجنبية.. وأنا آخذها لكي "أخنصر" فلوس من والديّ.. وأعرف ما هي الـ"آي جي".. نظام الدبلومة الأمريكية.. التي لا يدخلها إلا أبناء الأغنياء.. الذين يملكون "جيم بوي" و"ديسك مان" - لعبة إلكترونية غالية ومشغل أسطوانات موسيقي - وأتعرف على الإنترنت في أحد مقاهي الإنترنت التي لم تكن منتشرة بتلك الكثافة غير العادية.. وكانت مقصورة على

أولاد الأغنياء أيضا؛ لأن تكلفة الساعة خمسة جنيهات.. وأرى عالما مليئا بالفتيات الأجنبيات.. ونهشا آخر.. وأعرف مطاعم الوجبات السريعة الأمريكية.. وأشاهدها من بعيد..

وأعود لمزيد من الهروب.. ومحاولات فاشلة لكتابة قصة.. بوليسية غالبا.. تركيبها اللغوي بشع.. و"أحشر" بها كل المصطلحات التي قرأتها في قصص رجل المستحيل والشياطين الـ13 وألغاز المغامرين الخمسة وأحلم أن أصير مؤلفا مشهورا..

وأقضي بدايات تكوين شخصيتي في غيرة ونهش.. أرى طعامنا المتواضع (الطبيخ إياه) طوال الأسبوع.. عدا يوم الأحد.. الذي ما زلت أكرهه ليومنا هذا.. فتلك إجازة أبي.. وكان يخلق فيه طقوسا معينة.. مثل أنه لا يمكن أن يخلو هذا اليوم من اللحم أو الدجاج.. وكان يحتسي فيه البيرة أو الخمر قبل أن يفارق تلك العادة اللعينة للأبد.. وينام بعد الغداء.. ويستيقظ ليلا يشاهد التلفاز وهو يصرخ على أمي بأن تأتيه بـ"حاجة حلوة".. فيصير الأحد كابوسي.. لا أستطيع أن أحلق فيه.. لا أستطيع فعل أي شيء.. فقط أبي.. وأبي.. والمزيد من أبي.. وذلك كان النفور الطبيعي في فترة تحرري ومراهقتي.. فالمراهق يكره سلطة الأهل بشدة ويصير التحرر هو الهدف.

* * *

حلم الخال الأمريكي

وتأتي الأيام بخالي الذي يحمل الجنسية الأمريكية.. تلك الشخصية التي أثرت بعمق في تركيب شخصيتي.. فكنت أنتظر زياراته كل عام أو عامين لمصر بصبر قاتل.. كنت أراه بعينيه الخضراوين وشعره البني الناعم وسمرة بشرته المشوبة بحمرة.. ومغامراته عن بدايات أسفاره كبحار على السفن التجارية.. واستقراره ذات يوم في أحد موانئ العم سام.. وكأنه أحد أبطال الأفلام الأمريكية التي كان لها تأثير مساعد رهيب أيضًا في تكويني.. أراه فأرى أمريكا الرائعة التي أراها في التلفاز.. وكان عزبا لفترة كبيرة جدا.. يتزوج أمريكية ويتركها.. ويعود عزبا.. ويترك كل البيوت المرحبة به ولا يستأجر شقة ولا ينزل مقيما في فندق.. بل يقضي إجازته في دارنا بالقاهرة.. ويزور خالاتي في موطنه وموطن أمي – الإسكندرية – زيارات خاطفة.. ويعود ليغدق علينا الحلوى والهدايا.. والأحلام.. وكان دوما يقول لي جملته الشهيرة التي تركت من أجلها كل أحلامي: "اكبر يلا وخد شهادة علشان أخدك معايا أمريكا".. فكنت أرقص طربا.. وأهيم بخالي (الأمريكي) أكثر.. فأعشق الإنجليزية وأبرع فيها.. وأدهش كل أهلي ومدرسيّ بنبوغ في اللهجة الأمريكية ينبئ بمتحدث إنجليزية بارع.. وتمر السنوات.. ويأتي خالي.. ويسافر.. ويصر على أنه سوف يأخذني إلى أرض

الأحلام.. وسأرى الشقراوات والحياة (إياها)..

- تصدق ان عندهم ملاعب كرة سلة في الشارع؟!

وتأتي الرياح لتطيح بسفن أحلامي بعيدا.. فيتزوج خالي من مصرية متوسطة الحال والتعليم.. وإن كانت "بتلعب بالبيضة والحجر.. وشايفة نفسها.. وبتتكلم بالعين والحاجب" مثلما كانت تصفها أمي.. فتأخذ خالي الجميل منًّا.. فيصير ملكا لها ولأهلها فقط.. ونهشا آخر.. أهلها سينعمون بخيرات الخال الطيب.. والهدايا الأمريكية المنتظرة لن تدخل دارنا بعد الآن.. وأكبر أكثر.. وأدرك مدى الوهم الذي قضيت طفولتي فيه..

الخال ينجب أولادًا وبنات.. وصار لا يزورنا كلما جاء إلى مصر كعادته إلا مرة واحدة.. وربما اكتفى بمكالمة هاتفية لصلة الرحم فقط.. ونجحت الزوجة في الإيقاع بينه وبين شقيقاته بمن فيهن أمي.. فأدركت أنه لن يكون هناك أمريكا.. أعود لمرحلة الثانوية.. والفرار من المدرسة.. وارتياد المقاهي.. وأخذ أموال الدروس الخصوصية لإنفاقها على "شلة" شباب "صيع" مثلي.. ونرتاد المراقص الليلية.. ونبدأ في التدخين.. وأبدأ في التعرف على "الدماغ" بحذر وخوف - نَفَسين بانجو مع فلان - وأعود لألوم نفسي.. وأصلي.. وأعود لأتعرف على نوعية متدنية من الفتيات يرتدن المدارس الفنية التجارية.. اختيار البسطاء الشعبيين وأسرع وسيلة لإيجاد عريس -

واهو تبقى اتعلمت برضه! – يسهرن لفترات متأخرة.. ويشتمن بأقذع الألفاظ.. ويتكلمن عن الأفلام الجنسية.. فتشمني أمي.. وتجلس لي بالمرصاد.. فأبكي وأتعلل بأني أريد أن أشترك في نادٍ ما.. أو أي شيء مثل أصحابي المحترمين.. فتذهب هي بنفسها لمركز شباب متواضع لتدفع لي مبلغ اشتراك.. فأهرب منه.. لأنه "مش قد كده.. وما فيهوش بنات زي نادي الجزيرة اللي مشترك فيه فلان".. وأعود لشعور النهش.. واليأس.. فأنغلق على نفسي.. وأدخن.. فيعرف أبي.. ولا يضربني.. وكأنه كان مهيأ لهذا الخبر منذ أن كبرت.. فهو يعلم أن فرصة أن يصير ابن المدخن الشره مدخنا بدوره عالية جدا.. ويقاطعني..

تبدأ المعاملة السيئة.. ومزيد من التدهور في دراستي.. ما عدا الإنجليزية طبعا.. فكنت أحصد فيها الدرجات العالية شبه النهائية دائما.. على الرغم من ضياع الحلم.. لكنه ترك لي بقايا.. مفيدة!

* * *

أمي

وفي أثناء مرحلة نضوجي.. تنزل أمي لميدان الحياة.. وتعمل.. عملت - بكل فخر واعتزاز - كطاهية ومديرة منزل لأحد السفراء السابقين.. وكان بيتا مهذبا راقيا جدا.. تعامل فيه أمي بكل رقي وتحضر.. وتأتي أمي بالمال لكي تساعد في تربيتنا.. ومع مجيء المال تتعلم أمي الكثير من العادات الراقية.. وتعلمنا كيف نأكل.. وكيف نتكلم بأدب.. وكيف أن التعليم أهم ما في الحياة.. وتأتي بالهدايا من منزل السفير.. ونرى ما لم نكن نحلم برؤيته.. هدايا أعادت لي ذكر هدايا الخال الأمريكي الجميل.. ونتعلم أسماء أكلات غريبة.. وأنواعا لم أكن أتوق لأن أحلم حتى أن أتنشق عبيرها.. فالسفير وأسرته جالوا ربوع بلاد الكرة الأرضية.. طعام يوناني.. طعام صيني.. طعام أفريقي.. وتحكي أمي عن أبناء وأحفاد السفير ودراستهم في المدارس الأجنبية.. وكيف أن الجامعة الأمريكية هي "البلكونة" بالنسبة لهم.. وتقول:

- التعليم الصح مهم.. دي ناس يا ابني بيتعلموا بنظام ياخدوا فيه السنتين في سنة واحدة بس.. مش العكس!! (تقصد اختزال الفترات الدراسية) ولا الإنجليزي بقى.. ولا بفهم منهم يا ابني.. شوف أهو أنا معايا ثانوي بس ولا بجمع كلمة!

وأعود لنهش آخر.. وأقرأ في الدين قليلاً.. ويُنزل الله على صدري الصغير رضا.. يزول بعد أول "خربشة" غيرة في صدري.. ومع مرور حالات النهش.. بدأ أخدود من الأسى يزداد عمقا بداخلي..

وأصبحت من مدمني اليأس.. وكنت أستمتع بالحزن والرثاء للحال.. صار الوقت الذي لا يأتي النهش فيه مملا بلا معنى.. فأستجدي رثائي لحالي.. وأتذكر حكايات أبي عن جدي الأسطوري لأعود ممتنا للنهش الذي صار لذة كالضحك والجنس..

* * *

الجد والنهش من جديد

جدي.. الحاج أحمد.. ياه.. ما زالت رعدة خفيفة تسري في أوصالي كلما تذكرت ملامحه الجامدة التي انطبعت في ذهني من خلال صورته الضخمة التي ظلت لسنوات عِدَّة شامخة على أحد جدران غرفة الصالون.. أنا لم أره قط.. وكل ما عرفته عن هذا الجد الذي لم يختلف اثنان على هيبته وقوته وسطوته الراسخة كان من خلال حكاوي الأسرة.. ولم أجد أحدًا من الأقارب أو المعارف إلا وذكر هذا الجد العظيم بكل تفخيم وذكر لنجاحه ووصوله إلى مكانة لم يبلغها أحد من عائلتنا قط.. هذا الجد الذي بدأ حياته في مدابغ الجلود "صنايعي".. واكتسب مهارتها في عامين فقط.. بل إنه كما جاء على لسان جدتي:

- كانت المدابغ بيتخانقوا عليه.. أصله كان بيشتغل في أي جلد.. وأي شغل يطلع من تحت إيده ع التصدير علطول..

وجذبه عالم الجلود.. فصار "قمسيونجي" بين الورش الكبرى.. وعامان آخران وامتلك الجد ورشته.. وتطورت من ورشة جلود إلى ورشة صناعة أحذية ومنتجات جلدية.. وترك الورشة الصغيرة.. وابتاع مصنعا ذا طابقين بقرب منطقة العتبة.. التي كانت في خمسينات وستينات القرن مركزا مهما لصناعات الجلود في القُطر بأكمله.. ونمت تجارته.. وامتلأ

المصنع بالعمال.. ففتح باب الرزق أكثر.. وصار الجد يتعامل مع أكبر محلات المنتجات الجلدية في البلد.. بل إن والدي أقسم لي مرة إنه:

- كان مفيش واجهة محل في وسط البلد والشواربي إلا وكان فيها بضاعة جدك.. من أول الخواجات اللي بيجيبوا موديلات بتاعة برة.. لغاية محلات الغلابة اللي في الموسكي..

فتوسع الجد أكبر.. وترك بيته القديم في حي باب الشعرية.. ونزح لحي "الخواجات والأكابر" في حينها.. وهو حي "الظاهر".. الذي كان قديما مأهولا وعامرا بالجنسيات المختلفة.. فقد كان حي "الظاهر" وحي "السكاكيني" امتدادا هادئا لوسط البلد الراقي - حينها - وفتح محلا يبيع فيه بضاعته في حي شبرا.. وابتاع عقارا.. وسيارة.. وصار من أغنياء العائلة.. بل كان هو الوحيد تقريبا.. ويحكي أبي وهو يترحم على تلك الأيام التي كانوا يذهبون فيها للمسرح كل أسبوع.. ويذهبون للاصطياف في أرقى مناطق الإسكندرية.. وكيف أنهم كانوا من أوائل من اقتنوا الصندوق السحري - التلفاز - في أول ظهور له.. حيث كان بعض الوزراء لا يملكون في بيوتهم تلفازا!! وكيف كانت الحياة راقية.. وكيف وكيف.. باختصار سيناريو رواية عمارة يعقوبيان على لسان بطله (زكي باشا)!

ويحكي كيف انهار كل شيء بوفاة الجد المفاجئة في سن صغيرة..

وطمع أخيه الأكبر في التركة.. وظلمة لشقيقيه - أبي وعمي الأصم الأبكم - واستيلائه على المحل والمصنع والسيارة.. وانحداره.. واضطراره في نهاية الأمر إلى بيع كل شيء.. لكثرة ديونه.. لافتقاره إلى أمور الإدارة.. وطمعه الدائم في أن يعيش في رخاء دون الاهتمام بإدارة عمله.. فكان هذا الانحدار وضياع الثروة عقابا إلهيا له على ما فعله بأخويه.. وأكله حقهما.. يحكي أبي وينهي ذكرياته بجملته المستسلمة: "حسبي الله ونعم الوكيل".. وكأنما استسلم لضياع الحق.. فأمعن النظر لأرى سبب استسلام أبي.. ماذا تريده أن يفعل؟ أن يقاتل أخاه ويصارعه.. يقفان أمام بعضهما البعض كخصمين في قاعات المحاكم.. يتدنيان لمستوى العراك والمشاجرات والبلطجية؟ فيتعب عقلي المكدود.. وأرثى لحال أبي.. أتخيل لو كان عمي عادلا.. رحيما بأخويه.. مراعيا لحقوقهما.. لكنا نعيش اليوم في رغد مثلما عاش فيه والدي صغيرا وشابا.. لو فعل عمي ما يجب فعله لكانت الحياة الآن طيبة.. ولاختفى "النهش" الذي عاش معي منذ أن حبوت.. فتزداد كثافة الكره والنفور من العم الظالم.. لأنه كما بدا لي حينها على أنه هو الذي زرع هذا النهش بداخلي.. فأراه في أحلامي شيطانا يرتدي السواد ويعلو رأسه قرنان.. ممسكا بشوكة ذات ثلاثة رءوس.. يحك بها صدري إلى أن يدمي.. محطما أسناني وفكي.. بضحكته السادية المجلجلة..

* * *

الفراشات لا تحلق فوق المستنقعات

أنـزوي داخـل نفـسي.. وأسـتلذ بـشعوري بعـذاب الفقـير المحطـم البائس.. وأتمرد على وضعي.. وأسرق المال من والـديَّ.. فيعرفـان.. ويعلنـان الصمت.. وتعلن أمي عن بكائها.. فقط لعجزها عن أن تلبي مطـالبي.. ولـيس لأن ابنـها صار يسرقها.. وأدخن بـشراهة.. وفي المنـزل بـلا حيـاء.. وتتعثـر دراستي.. تتعثر في أهم مراحلها.. الثانوية العامة.. فأحصد مجموعـا فقـيرا مثلي.. فأسقط للأبد من عربة التعليم المجاني.. يعلن أبي عن عدم امتلاكه ما يكفي لتعليمي الجامعي الخاص.. لأعود لهـوة سحيقة مـن إدمـان الـنهش.. وإدمان الحشيش مع رفقـاء الـسوء.. وأتعثـر في دراسـة تقليديـة للـسياحة.. وتنسحق أمي تحت ثقل العمل الشاق لتأتي لي بمصروفات الجامعـة الخاصـة كي لا أصير عاملا متوسط التعليم..

- يالكِ من أم رائعة عظيمة.. لكن كان تعاطي الحشيش يبعد النهش عني.. ويصور لي حياتي كما أريد أن أراها.. راقية مملوءة بالمال والـسيارات والنوادي الفـاخرة.. فيبـدأ شيطان المخـدرات في التهـام البقيـة الباقيـة مـن عقلي.. لكن شيطان الحشيش صـار صـديقا لـشيطان الـنهش فيتعاونـان علـى إسقاطي.. فصرت أكره رفقائي.. وأتصورهم دون مستواي.. وأتعـالى علـيهم.. (عيال بيئة بتاعة قهاوي وبنات ثانوي تجاري).. فأغرق في عـوالم موسـيقى

الروك والميتال الشيطانية.. وصار أصدقائي لا يحبون رفقتي.. وأطلقوا عليَّ لقب "الخواجة" - عايش لي في الوهم.. وكل شويه يرمي لنا كلمتين إنجليزي في الكلام.. وبتسمعوا لفلان.. لأ.. مانتو بيئة.. على إيه؟ ده أبوه جزمجي - صرت أتجنب كل الفتيات.. لأنهن "بيئة".. لا توجد منهم فتاة الحلم التي تداعب نهشي المرضي..

لم أصادف ذات الشعر "الكيرلي" الطويل.. الجميلة جدا.. رشيقة الخصر.. التي ترتدي "الجينز" ذا الخصر الساقط أعلى ردفيها.. والتي ترتدي القلادات المبهرجة.. والحذاء الرياضي الدقيق المنخفض "الكونفرس".. والتي تقود سيارتها الخاصة.. وتحمل أربع بطاقات ائتمان أو خمسا.. وتتسوق في "المولات" الشهيرة.. وترتاد "الكافيهات" أمريكية الطابع.. وتتراقص الكلمات خارجة من فمها الجميل الدقيق حاملة "الخنفة" الأمريكية الشهيرة التي يجيدها كل أبناء تلك الطبقة العليا من مجتمعنا.. المنخور أساساته كقطعة الحلوى المتروكة في العراء.. ولأني لم أجد تلك الفراشة الخيالية بقرب مستنقعات طبقتنا.. عزفت عن فتح بوابة قلبي لأي فتاة.. فكنت أرى لمحات انجذاب تتقافز من أعين فتيات كثيرات نحوي.. فكانت الجملة العبثية تتردد في ذهني كعذر صامت يقتل نظراتها (آسف.. أصل انتي مش فراشة!)..

ويجتاحني حنين غريب أوقاتا.. الحنين كي أرتمي بين ذراعي أمي وأشكو لها نهشي وعوزي.. فأفعل.. فتبتسم ابتسامتها الرائعة.. التي تحمل لوما وحنوا ومواساة: لوم على أنني صرت كبيرا على "أنا عاوز كذا زي صحابي".. وحنو بلا سبب.. ومواساة على عدم تلبية هذا الاحتياج!!

* * *

الجميز والتوت

تخرجني أمي من هم نهشي كعادتها بحكاية تحمل مواساة لا تخلو من كوميديا لطيفة..

وتحكي لي أمي حكاية "الشراب أبو كرات ملونة".. وكيف أنه قديما كان منتشرا بين طالبات المدارس جوربا جميلا مزينا بشريطين ينتهيان بكرات صوفية.. وكيف أن ثمن هذا الجورب كان غاليًا جدًّا بالنسبة لأسرتها - خمسون قرشا تقريبا! - وكيف أنها كلما بكت لأمها لكي تبتاع لها الجورب.. رفضت الأم في غلظة مصرة على ابتياع الجورب التقليدي الرخيص.. وتحكي أنها كانت تبكي البكاء نفسه كل عام تقريبا طوال سنوات دراستها الابتدائية.. وفي كل مرة ينتهي البكاء بغلظة ونهر الأم لها.. وأنها حتى يومنا هذا لم ترتدي الجورب ذا الكرات الملونة.. وتضحك أمي.. ويلتمع الدمع في عينيَّ.. فتنهي حديثها الجميل بالحكمة الريفية التي كانت تلقنها إياها أمها دوما في حالات نهش مماثلة "اتجمزي بالجميز على ما يجيلك التوت!".. بما أن الجميز ثمرة رخيصة ويسمونها الفقراء والبسطاء "فاكهة" على سبيل التسرية عن أنفسهم.. فالجميز حلوة ثماره نادر.. ومُرة في أكثر المرات.. وكذا حياة الفقر.. فصارت الجملة هي رد أمي الكوميدي دوما عندما أعلن لها عن نهش جديد.. فنضحك سويا من قلبنا..

بل واختصرت أمي الجملة إلى كلمة واحدة (جميز).. فصار الفقر جميزا..

أنسى نهشي سويعات.. ويعود يمضغني.. ويبصقني مهلهلا.. أتجاهله.. أتذكر ديني الذي حجبه عني شيطانا النهش والعبث.. وأعود من جديد لنهم الحشيش.. وأرسب في دراستي.. أتعرف ما معنى الرسوب لمن يدرس في جامعة خاصة؟ مزيد من المال الذي يأتي بذل الأم الرائعة المتفانية..

إلى أن انزلقت في بئر المرض النفسي.. وصار تدخين الحشيش يجعل عقلي المتقد ساحة عراك.. يتقاتل فيه الوسواس القهري مع الشعور بالعظمة والاضطهاد.. فصارت نوبات عجيبة تجتاحني بعد تدخين الحشيش.. فأسمع كلمات الآخرين ككلمات "تلقيح" ساخرة.. وكل صوت يفسره عقلي على أنه موجه لإفزاعي وإرهابي.. وتضخم شعوري بالذنب يهيئ لي أن الشياطين تعابثني لأني دخلت مملكتها.. وأنها هي التي تسيطر على موجات الفهم التي تدخل إلى وعيي.. فتجند التصرفات والكلمات العادية لصالح ترهيبي والسخرية مني.. فكرهت حالات "السطل".. لأنها تتلاعب بي عن طريق خيالي المتسع وثقافتي المكتسبة منذ الطفولة.. وهنا كانت العلامة الكبرى.. التي أضاءت عقلي المغيب.. برؤيا داهمتني في نومي ذات ليلة..

* * *

الرؤيا والخلاص

رأيت فيها نفسي أسير في غابة متسعة.. كل أشجارها تتدلى من أغصانها ثمار الجميز الأصفر.. ورأيت "أنا" آخر ينظر في مرآة ضخمة صانعا بوجهه حركات كأنه يخيف طفلا صغيرا.. و"أنا" ثالثا يعصب عينيه بخرقة قذرة وهو يسير أمام زاوية صغيرة يصلي فيها بعض المصلين.. و"أنا" رابعا يبدو جائعا جدا.. أمامه طبق به كسرات خبز.. ويرفضه وهو يحيل بصره بين الطبق ولوحة معلقة في الهواء رسم فيها مختلف صنوف الطعام الفاخر.. ويسيل لعابه.. ويتأفف من كسرات تسد رمقه.. عند شجرة كبيرة ضخمة.. مهيبة ضاربة نهاياتها في الأرض متشعبة عجوز.. وتتدلى من أغصانها ثمار مغلفة لم تثمر.. والشجرة جافة كأنها التراب يشتهي المياه.. وأمي واقفة عند الشجرة.. تمسك بمسقاة وشوكة صغيرة.. ويبدو عليها التعب.. ركضت إلى أمي.. أخذت من يدها الشوكة والمسقاة.. وسألتها في جزع عما تفعله..

فأجابت بلهاث متقطع: "يا ابني بزرع لك توت.. انت مش زهقت من الجميز؟ بس تعبت.. الشجرة كبرت.. ومش عايز الطرح يفتح".. فبكيت.. بكيت حتى اجتاح الضباب عينيَّ وأنا أقبل يد أمي.. فأجلستها أرضا برفق.. وإذا بي أنهال بالشوكة على التربة الجافة.. وأسقي الماء.. وأنبش.. وأسقي.. وكلما سقيت وقلبت التربة.. بزغت ثمرة توت من

مغلفها.. يجتاحني الألم.. فأقطف الثمرة.. وأسقطها في حجر أمي.. وأعود للسقاية.. والنبش.. ثمرة أخرى.. وأمي تبتسم ويغزو الفرح عينيها.. فإذا بـ"أنا" الآخرون يقتربون مني.. هم ينظرون لي بود كطالب مشاغب ينتظر الصفح من معلمه.. فأبتسم لهم.. فيركعون أرضا وكل منهم ينبش جزءا من التربة بيديه العاريتين.. فأصب أنا الماء فيها.. فتبزغ مزيد من ثمار التوت بديع الشكل.

* * *

ملحوظة: لم يكتب صاحب المذكرات أي مذكرات أخرى.. لكنه وعدني إذا كتب ثانية سيأتي لي بما كتبه.. لكني أعلم أنه لن يفعل.

"شكرًا لثقة صاحب المذكرات بي"..

الدمية القماشية



كنت قد عزمت أمري أن أقابل صديقة قديمة.. كثيرة الأسفار هي.. ونادرا ما أراها.. وكنت أعتقد أنني أحبها قديما إلى أن حقنتني بالحقيقة بجرعات متفاوتة غير مباشرة.. وهي أنني مجرد أحد يروق لها كوجود ذكوري في حياتها.. لكن من الصعب أن أكون الوجود الذكوري الأول في حياتها.. فصرت مكب نفايات حياتها.. نتكلم عن الجنس والشبق صراحة.. عن تفاصيل لقاءاتها مع حبيبها.. مشاجراتها مع والدتها العجوز.. وأتلقى صديد جراحها بصدر رحب.. وصارت هي الأخرى مجرد وجود أنثوي في حياتي لحفظ توازن ذكر أعزب.. بارعة في الإنجليزية هي.. وأنا آكل عيشي بالإنجليزية..

فصرنا نتحدث العربية نادرا.. كانت من طبقة اجتماعية راقية.. وكانت نحيلة.. ترى الزرقة في عروقها ترسم وشوما عجيبة على ذراعيها وجيدها.. تصبغ شعرها لونا أشقر.. لأول وهلة تحسبها أوروبية.. لكنك مع أول نظرة عميقة في عينيها الجشعتين.. ستدرك أنها مصرية جدا.. لماذا تخيلت أنها قد ترقد بين ذراعي يوما ما؟ تبا للفقر! تقابلنا في أحد "الكافيهات".. تبادلنا المزاح البذيء.. وتبادلنا الأسرار القذرة.. وحكت لي عن الفتى الوسيم الذي طلب منها مراقصتها على أحد شواطئ إسبانيا..

كنا نمارس نوعا من الجنس الفكري.. ما زلت أنا الصعلوك المفضل لديها.. من قاع المجتمع لكنني لسبب ما أتحدث الإنجليزية الأمريكية ببراعة.. وأرتاد أماكن الأغنياء وأختلط معهم دون أن يتخيل أحدهم أنني ابن "نجار".. وأعمل في شركة ذات كيان عالمي.. لكني لا أجرؤ على التفكير في تقلد منصب ما أعلى من موظف قسم الشكاوى.. لكنني لسبب لعين لا أدركه.. ما زلت أحلم أنني يوما ما سأسكن فيلا في "القطامية".. وسأقود تلك السيارة الفارهة والمصنفة فئتها "للكبار فقط"!!

رثيت لحالي وأنا أودعها وهي تتحرك بسيارتها التي تحمل العلامة الفرنسية الشهيرة المركونة أمام "الكافيه".. عرض سريع أن توصلني إلى أي مكان..

أرسلت لها قبلة الهواء الشهيرة وأنا أرفع سبابتي ووسطاي قرب جبيني كناية عن شكري.. فكرت أن أسير بمفردي.. البلد مزدحم كليلة عيد.. سرت.. الليل لم يخفف من ثقل رطوبة أغسطس اللزجة.. تجاهلت العرق.. وظللت أسير والسخونة تجتاح رأسي كالمسطول.. وتسارعت الأفكار في عقلي كسيل عرم.. لماذا يحب صعلوك مثلي صوت "فيروز"؟ لماذا أشعر دوما أنني أنتمي لطبقة أعلى من مستواي؟ لماذا أدمن الحقد الطبقي؟ من ابتدع

هذا المصطلح القبيح الذي يتنافر مع سحابة الرضا العظيمة القابعة أعلى سماوات الشعب المصري منذ أن رضخ لأول احتلال؟ كيف يقود هذا المراهق الناعم تلك السيارة باهظة الثمن؟ ترى هل ورث أبوه ثمنها من تناقل الثروة عبر طبقة واحدة.. أم ابتاعها له أب فاسد قبل أن يطرق باب الفساد متعللا بأنه "كله بيسرق.. هي جت عليَّ أنا؟".. فتاة جميلة ترتدي ملابس مثيرة.. يوما ما سترقد في حضن وغد فظ لأنه فقط يجلس فوق كومة من المال.. جميلة غافلة هي تتمايل تعرض بضاعتها الشهية.. مقابل الأمان والحياة الرغدة.. وثار غيظي رجل صحيح البدن كامل العافية يتسول بذلٍ مقزز.. يتوسل الفتات من الأغنياء متخمي الكروش الذين لن يؤثر على خزائنهم بضعة جنيهات ستشكل له ثروة بالتراكم.. لماذا "يستسهل" الشحاذون الحياة لتلك الدرجة؟ وكأن كرامتهم هي كل ما يمتلكون ليبيعوا.. العرق يغمرني.. وقدماي اتخذتا قرارا فرديا بالسير.. السير المستمر.. سخط غريب يتملكني.. حقد طبقي طاغٍ يجتاح عقلي.. أرى بناية شاهقة فاخرة.. فأنظر لها برثاء وحقد.. "مش كفاية انك بتلف زي التور في ساقية علشان تاكل؟ كمان زعلان علشان مش هتسكن في عمارة زي دي؟".. سخريتي من نفسي ألقت الجملة سالفة الذكر على مسامع البشر المنهمكين في التبضع ومشاهدة

الواجهات الزجاجية.. الذين لم يلفت انتباههم شاب صغير السن مثلي يتحدث إلى لا أحد.. ظللت أسير بلا إرادة إلى أن وصلت للشارع العريض الشهير.. السيارات تندفع كمقاتلات حربية تقلع من ممر حربي.. تتلاحق السيارات وأنا واجم أنتظر أن أعبر الطريق.. عبرتُ في تهور بين سيارتين إحداهما تقودها سيدة متصابية مرقت بسرعة رهيبة من أمامي وبيني وبين زجاج سيارتها الجانبي ملليمترات.. سمعتها تسبني.. لم أبالِ.. الصعاليك المتخلفون أمثالي لا بد أنهم يثيرون تقززها.. لعدة ثوانٍ تجمدت وسط الطريق وأفعم أنفي عطر نسائي حاد.. لا بد أنه كان يملأ فضاء السيارة.. قفزت على "جزيرة" الطريق.. وصداع لعين يحرق عينيّ.. وقفت عاجزا عن العبور.. الحاقدون أمثالي يعبرون قفزا.. أو ركضا.. ربما يستمتعون كذلك بمضايقة الثري الذي يقود سيارة فارهة.. ألا يكفيهم أنهم يقودون سيارات؟ فلنضايقهم قليلا بهمجيتنا المعروفة.. خطف بصري مشهد غريب.. دمية قماشية من النوع الرائج بين لعب الأطفال.. ملقاة في نهر الطريق.. ممزقة بلا رأس.. تفرمها العجلات الخرقاء المتسارعة.. كانت خضراء اللون مزدانة ببقع زيتية ويكسوها الشحم والتراب.. وقفت مشدوها أراقبها بحسرة وكأنها كائن حي.. والهواء الساخن الناتج عن اندفاع السيارات يجفف

عرقي.. صفير خفيض يجتاح أذنيَّ.. تبا لكم أيها الملاعين.. تبتاعون سيارات ثمينة.. تبتاعون الجميلات بأموالكم وكأنهن جوارٍ.. وتتدافعون في نهر الطريق كقطيع الثيران البرية.. ترى كم منكم أدرك أنه يسحق دمية قماشية بائسة بلا رأس.. متعلقة عيناي بالدمية منزوعة الرأس وقد سكنني شعور طاغ بالقهر والعجز.. خاطر مجنون يلح عليَّ أن ألقي بجسدي بجوارها على أرض الطريق لأختبر إحساسها وهي تنسحق تحت وطأة القطيع الطائش.. تدافع السيارات أخذها.. وظلت تبتعد.. هدأت حدة التسارع.. والبطء ساد الطريق.. مجموعة من المراهقين واقفون على الضفة المقابلة.. ينظرون لي ويتبادلون الهمهمة الساخرة.. ضحكات مكتومة.. من الجلي أنهم كانوا يراقبون حسرتي على الدمية.. تنهدت.. وعبرت نهر الطريق بقفزتين.. وكانت العصابة الساخرة تعبر بجواري في عكس الاتجاه.. لا أدري لماذا غشت عينيَّ طبقة من الدمع الكثيف.. رثاء شاب ساخط على دمية ممزقة.. لماذا بدت لي تلك الدمية مألوفة للغاية.. وكأنها جزء من كياني.. أو كأنني أنا جزء من كيانها المنسحق.. ورأيت – فيما يرى المهلوس – الصبية الساخرين مفترشي أرض الطريق تتقاذفهم العجلات الطائشة.. مرت الرؤية العبثية في وهلة.. وشهقت أنا في معاناة والدمعتان "إياهم" تنحدران على

وجنتيَّ في سرعة وتبللان قميصي.. وتسللت إلى أذنيَّ جملة ساخرة من أحد الصبية بعدما عبر الطريق.. "البقية في حياتك يا برنس"!.. وتعالت الضحكات العابثة.. لم أجد جهدا كافيا لكي أهتم.. سرت إلى شارعي بتخاذل وخطرت لي خاطرة ساخرة جعلتني أبتسم وأرفع كفي لأمسح الدمعتين في سرعة.. الخاطرة الساخرة كانت تفكيري في إقامة عزاء للدمية القماشية في دار مناسبات مسجد شهير يقيم فيه الأثرياء ورجال السلطة عزاء موتاهم.

أشكال على سطح القهوة

(لمحات من وهم حقيقي)



اعتباطا حاولت أن أقنع من حولي بتلك الرؤى التي تجتاح ذهني في أثناء شرودي في تأمل سطح "كنكة" القهوة الذي يحمل طبقة البن الكثيفة.. والذي ترتسم عليه أشكال عشوائية.. قد أستخلص منها شكلا واضحا.. يبدو واضحا لي.. بارعا.. وكأن إرادة الله قد بعثت أعظم فناني الرسم في العالم ليرسموا على سطح قهوتي لوحة منمنمة لا تزيد مساحة سطحها على سنتيمترات خمسة.. وبكل الغرابة والدهشة أجد حياتي تحمل اللوحة بتفاصيلها.. بكل رموزها.. بكل معانيها.. وكأنها تجليات لنبوءات تحدث بالفعل.. لا أدري إن كانت تلك حالات هلوسة عميقة.. أم هي سعة الخيال.. أم مجرد أشكال على سطح القهوة!

المطبخ مكان دافئ.. محبب لنفوسنا.. حتى لو كان ضيقا قذرا.. مكتظا بحشرات منزلية تزحف في جشع.. ولعل ارتباط المطبخ بغريزة الشبع في أذهاننا هو ما يعطي للمطبخ هذا الجو الغامض من الشعور بالأمان.. أو لعله وجود الأم الدائم بين جدرانه هو ما يورث هذا الانطباع.. تعلمت إعداد القهوة التركية الشهيرة منذ أن كنت في العاشرة من عمري.. وارتبطت في ذهني بوجود أبي بالمنزل.. أو زيارة أحد الأقارب أو الأصدقاء.. وتولد في ذهني عشق غريب لهذا المشروب الغامض.. فقد كنت طفلاً أنتظر فروغ أبي

من شرب قهوته.. فأركض سريعا لكي أختطف الكوب الزجاجي القزم.. أو الفنجان الأبيض المزدان بنقوش قوطية حالمة.. متعللا أنني سأعيد الكوب أو الفنجان الفارغ لوالدتي لكي تغسله.. فيبتسم أبي بحنو.. فأقطع المسافة بين غرفة أبي والمطبخ.. وأنا أقرب الوعاء الصغير من أنفي فأشهق عبير البن المترسب في القاع مخلوطا بثمالة القهوة.. ياه.. لحظة انتشاء.. تكاد لذتها تقهر نشوة امرأة فاتنة.. فأبتسم وأتلفت حولي كلص.. ثم على استحياء وسرعة أمد أصابعي الرفيعة – آنذاك – إلى قاع الوعاء لأختطف من عجينة البن المترسب ما يملأ أنملتي وسطاي وسبابتي.. وفورا أدسهما داخل في ليجتاح فمي مذاق البن البارد الذي فقد شموخ السخونة فيه.. فأظل ألوكه إلى أن يملأ فمي البن فتجتاحني غصة.. فأكتم السعال وأركض إلى المطبخ أجرع الماء بنهم.. وألهث كمن فرغ لتوه من مضاجعة حميمية..

أول التجليات العجيبة على سطح القهوة كان حكاية "سلكة"..

"سلكة" كان صبي قهوة "البكوات" القاطنة في خن من أخنان العباسية.. حيث اعتدت أنا وأصدقائي قضاء فترة اليوم الدراسي الصباحية إبان دراستي الثانوية بمدرسة "إسماعيل القباني".. حيث "التزويغ" ولعب الورق والدومينو ومشاهدة أعجوبة الزمان في ذلك الوقت.. قناة الأغاني المصورة الشهيرة التي كانت تعرض الأغنيات المصورة الراقصة.. حيث شبق المراهقة

التعس يلف العيون والأجساد والحلوق.. اعتدنا الذهاب إلى القهوة في تمام الثامنة.. لنجد الستائر الحديدية نصف مسدلة.. وضوء النهار في يناير كأنه البنفسج يغزو السماء.. ورائحة الصباح المزوجة ببخار الماء الذي يخرج من فتحات أنوفنا كأننا صغار تنين خرجوا من بيضة ضخمة.. تسلل محمود "كلبسة" - أحد أعضاء الشلة - منحنيا إلى داخل القهوة هامسا في سخرية مكتومة: أنا هخش أصحي أمه.. أكيد مأنتخ من سهرة امبارح.. وتقوس جسده ثم انزلق إلى الداخل.. وقفنا ننتظر نحن نتبادل المزاح حول "عشرة كوتشينة" خسرتها أمس.. وسرعان ما سمعنا الجلبة المكتومة آتية من الداخل.. سخط.. سباب.. شرعنا نضحك في جذل عندما جاءنا صوت صديقنا "كلبسة" مقبلا من الداخل قائلاً في جلجلة لا تناسب هدوء الصباح المقدس:

- قوم يا (...).. أسيادك واقفين بره في البرد.

انفجرت الضحكات في علو.. خاصة عندما سمعنا صوت ارتطام قوي وكأنه معدن يرتطم بجدار.. بعد ثوانٍ رأينا "كلبسة" يخرج مهرولا من أسفل الستار الحديدي ونصف سترته مبتل.. انتفض من لسعة برد غزت جسده وطفق يكيل السباب لـ"سلكة" صبي القهوة ويتوعده بأفعال بذيئة.. تراجعنا ونحن نضحك ونشير إلى البلل على سترة "كلبسة" وهو يطوح ذراعيه نحونا في غضب محاولا لطم أحدنا..

السخرية هي وقود الجنون في جذوة المراهقة.. والتهكم يثيرك لكي تقذف بنفسك أمام قطار لتثبت رجولتك.. والتحديات العبثية هي مرح اليوم المقتول.. مرت عدة دقائق بدت في صباح اليوم كأنها الدهر بأكمله.. ارتفعت الستائر الحديدية.. ورأينا وجه "سلكة" الهضيم الشاحب.. محتقنا إثر استيقاظه المفاجئ.. وشعره المجعد القبيح متناثر في عشوائية منفرة.. مرتديا أثماله المعتادة التي لا يغيرّها تقريبا إلا في أيام الأعياد.. البنطال القماشي البني.. والقميص الثقيل الذي كان جزءا من زي عسكري يوما ما.. "سلكة" كان الضلع المفقود في حكاياتنا.. نفس العمر.. نفس الضياع والبؤس.. لكنه كان صديقنا.. أحببنا سذاجته.. وخبثه الدفين الذي بهرنا مرارا.. و"فشره" المبالغ فيه الذي نستلقي ضحكا كلما استرسل يسرده.. كان دوما يسخط علينا ويسبنا مازحا:

– انتم عيال فاشلة بنت (...).. بقى تبقوا في مدارس وبتدفعوا أهاليكو دم قلبهم.. وتيجوا تترزعوا هنا وتهربوا من المدرسة.. آدي دقني لو شفتوا الجامعة يا ولاد (...)..

تأملت "سلكة" بملامحه الناعسة مغلقا عينيه متحاشيا ضوء النهار الوليد.. ثم نفخ بسخط.. وهو يغمغم:

– يا ديني ع الاصطباحة.. بصوا.. اللي عايز يطفح حاجة يتنيل يولع

"الرمالة" ويخش يعمل هو اللي هو عايزه بقى.. مش هاخدمكو وأنا لسه نايم من ساعتين..

تسللت أنا بخفة من خلفه ومددت يدي بسرعة قارصا أسفل صدره فانتفض هو جاريا وهو يقول بين الضحك وتصنع الجدية:

- بس يا سي زفت ع الصبح..

انفجرت الضحكات العبثية.. ذهب "سلكة" ليتكوم على الفراش القذر محاولا تجاهل انتشارنا الهمجي في أرجاء القهوة.. ذهب "كلبسة" بسرعة لكي يشغل التلفاز المعلق على الحامل على ارتفاع عال نسبيا وهو يرفع عقيرته نحوي:

- "سيسكو".. الدور عليك مشاريب النهارده.. أنا كنت امبارح.. "هيكا" عمل الصح معانا أول امبارح.. و...

قاطعته:

- بقولك إيه يا زفت انت وهو.. أنا قعدت أطفحكوا قهوة وشاي وبيبسي أسبوع بحاله.. أنا هعمل الحاجة ع "الرمالة" وحد فيكو يشيل الليلة بقى.. ارتفع الجدال والصخب.. وعلى مضض وافق إبراهيم الشهير بـ"هيكا" على دفع الحساب اليوم.. توجهت إلى "النصبة".. وشرعت في إعداد "الرمالة" وتسخين المياه وإعداد الأكواب بمهارة اكتسبتها من كثرة معايشة

المقاهي.. وكنت الوحيد بين أصدقائي الذي يحتسي القهوة "المسبكة".. أشربها "ع الريحة".. وكأنني مدمن أفيون عتيق.. كان عشق القهوة مثار سخرية أصدقائي لفترة طويلة.. لكنهم سرعان ما تناسوا الأمر لكونهم مدركين "عبقريتي" المزعومة.. فقد كنت أكتب الشعر والنثر منذ أن كان عمري أحد عشر عاما.. وكنت دوما أفضل قصاص بينهم.. حتى وإن كانوا مدركين لكذبي وخيالاتي.. لكنهم كانوا يستمتعون بحرفية التفاصيل الذي كنت آتي بها من خيال نهم لا أعرف إن كان قد ولد معي أم نما مع بؤس حياتي القاسية.. ناديت على "كلبسة" كي يحمل المشروبات إلى الشلة المتراصة أمام قناة الأغاني إياها:

- ارفع دول وأنا هفور قهوتي وآجي..

غمز لي "كلبسة" بمجون وهو يهتف بصوته المجلجل المعتاد:

- يا مزاجه..

رسمت الغضب على وجهي محاولا صد خبثه اللعين.. فهو الوحيد الذي عرف تدخيني للحشيش الذي كنت "أقرصه" من مؤنة خالي الأسبوعية التي اعتاد أن يخبئها أسفل أحد أعمدة الهوائي على سطح منزلنا..

- غور ياد بدل ما احميك بالكنكة..

ضحك صديقي محمود (كلبسة) وهو يمد يده لي في اعتذار وهو

يتراجع حاملا صحفة المشروبات وابتعد وهو يرفع يده بتحية عسكرية شبه جادة..

اشتهر "كلبسة" باسمه الطريف عندما تعرفت عليه في أول أعوام دراستي الثانوية.. حيث كان قد أتى إلى المدرسة يوما حاملا "مقلمة" كبيرة.. يلف بها على الطلاب واحدا واحدا.. وكنت أراه ينتحي بالطالب جانبا.. يعقد الصفقة الصغيرة.. يدس الجنيه أو الخمسين قرشا في جيب بلهفة وهو يتلفت حوله كموزع مخدرات عتيق.. لم أكن أعرفه في البداية.. إلى أن سألت أحد الأصدقاء فأخبرني بخطورة من يذيع سرا حربيا:

- تقريبا اسمه محمود.. بس هو مشهور باسم "كلبسة".. أصله بيبيع صور "سكس".. معاه بيجي ميت صورة.. كلهم بلاي بوي طباعة أمريكاني.. هههههه ورابطهم بـ"كلبس" معدن من بتاع الورق ده.. ومخبيهم في المقلمة الزرقا اللي معاه دي.. ثم رفع عينيه إلى الأفق حالما وأكمل: آه لو تقع في إيدي المقلمة دي.. ده أنا كنت.. آآآ..

ثم تنبه إلى أنه سيفصح عن سره القذر أمامي فتدارك الأمر وقال:

بس ده واد جامد.. ما حدش يقدر يبقى معاه.. شايل شفرة (كاتر) في جيبه على طول..

قررت أن أكون صديق "كلبسة" الخطير.. وبحيلة طريفة دعوته لكي

يرى كنزي الصغير.. مجلات جنسية كاملة غير منقوصة سرقتها من خالي الذي كان يعمل في مصلحة الجمارك.. فكان "يخنصر" من مصادرات الجمارك كل ما تشتهي الأنفس.. فصرت صديق "كلبسة" الوحيد.. ثم تطورت معرفتي به.. فعرفت مدى طيبة وسذاجة "كلبسة".. ومدى مستواه الاجتماعي الطيب.. وبراءة أفكاره؛ حيث كان مدمنا قراءة مجلات "ميكي".. جانب حقيقي جذبني لصداقة حقيقة لم تنفصم حتى يومنا هذا..

أخذت أقلب قهوتي بحرفية.. لكي يذوب البن مع المترسب في القاع ليصنع طبقة "الوش" السميكة.. وقعت عيناي – اللتان كانتا تمسحان المكان بعشوائية – على "سلكة" المكوم أرضا على فراشه.. ورأيت خيط اللعاب يتدلى من زاوية فمه.. والعرق الغزير ينبت بسرعة جنونية على جبهته الضيقة المعقودة.. وكانت تمتمة مبهمة تخرج من فمه بهمس.. رفعت عينيَّ لألقي نظرة مراقبة حذرة على "كنكة" القهوة.. لا يزال السائل البني ساكنا تغزوه الحرارة فترفع حواف دائرة سطحه على استحياء.. عدت أراقب "سلكة".. لكن تلك المرة رأيته ينظر لي في شبه جذع متسع العينين.. أجفلت لوهلة ثم تراجعت وأنا أهتف بغضب مخرجا توتر "خضتي":

إيه يا عم انت.. انت ضارب إيه ع الصبح بمنظرك ده؟

رمش بعينيه بقوة.. وهو يزدرد لعابه وأردف محدثا نفسه بصوت

عالٍ:

أنا هبطل.. أنا هبطل بقى.. مش هينفع.. سامحني يا رب..

ثم فجأة نظر لي وهو لا يزال متسع العينين وقال:

اوعى القهوة تفور يا "سيسكو".. القهوة لا.. القهوة لأ..

ثم انتفض وقام من على فراشه وهو يحك رأسه ومشى إلى دورة المياه مترنحا..

رفعت يدي الممسكة بـ"الكنكة" من فوق النار ووضعتها أمامي وأنا لا أنظر نحوها.. بل ما زال بصري يتابع "سلكة" وذهني شارد في الموقف.. نظرت إلى "الكنكة".. كان البن الكثيف متجمعا على سطحها صانعا "وش" رائعا في كثافته.. في العطر الغامض المنبعث منه.. في الخطوط المبهمة الواسعة التي أخذت في الانكماش بمعجزة البرودة.. راسما بإبداع رهيب رسما سحبني بعمق من لهو منتظر.. لأرى عدة خطوط بنية داكنة.. ترسم جسد "سلكة" الهزيل.. برأسه المفلطح.. بنحول ذراعيه.. حتى سترته العسكرية القديمة.. فاردا ذراعيه في وضع المصلوب.. تشد كلتا ذراعيه سلسلة متقنة الرسم.. بدت حلقاتها وكأن ريشة "ديلاكروا" فرغت لتوها من نسجها بفرشاة دقيقة على سطح لوحة مبهمة.. صقر عجوز في أحد جوانب الرسم ربض فاردا أحد جناحيه على استحياء كحارس يقظ.. أخذ الرسم المتقن في

الانكماش فوق سطح "وش" القهوة.. ماذا رأيت لتوي؟ أتراني أهذي.. أم تراني أحلم؟ أنا لم أدخن الحشيش منذ عدة أيام.. أتراني جننت.. أم تلك صدفة غريبة.. أم رسم عشوائي.. أم هو خيالي المريض؟

أفاقني من شرودي صوت صديقي "كلبسة".. كان مرتكزا بإحدى كتفيه على أحد جدران القهوة بمحاذاة الشارع الضيق.. ينفث دخان سيجارته ببطء وهو يشير بسبابته ووسطاه اللتين تحملان سيجارته وهو يقول:

انت ازاي بقى رفعت الكنكة من ع النار قبل ما تفور وانت مش باصص لها أصلا؟ انت مخاوي ياد؟

نقلت بصري بين "الرمالة" و"الكنكة" بشرود.. حاولت أن أصارح صديقي بذلك الموقف الغريب.. إلا أن شيئًا ما على سطح القهوة أخرسني.. أخرستني قوة ما.. رسمت ابتسامة مفتعلة وقلت:

دا انا "سيسكو" ياد.. "سيسكو" وتاج راسكو.. ههههه.

طب يلا يا برنس.. هنبتدي بولة "استميشن".. انجز..

ومر اليوم.. ممزوجا بشرودي العميق إزاء هذا الموقف المبهم.. لكن تغيرت رؤيتي للأمور بعنف.. عندما تم القبض على "سلكة" في نفس اليوم ليلا.. كان "سلكة" يوزع الحبوب المخدرة لصالح أحد تجار المخدرات في

المنطقة.. قطعنا علاقتنا بالمقهى مؤقتا وعلى استحياء.. لكن شبح تلك الخبرة أخذ يربط في ذهني بين تلك الرؤيا المهمة وبين القبض على "سلكة".. أكانت تلك نبوءة.. أم إشارة؟ لكن الأيام مرت مسرعة.. واقتربت امتحانات نهاية العام.. واضطررنا جميعا لحضور الحصص للمراجعة والاستفادة من الملخصات التي يصنعها المدرسون في مواسم الامتحانات.. لكن المفاجأة التي هزت كياني كانت هي خبر موت "سلكة" في ديوان أحد الأقسام نتيجة تعذيبه للاعتراف بهوية التاجر الذي يزوده بأقراص المخدر المستوردة.. وفيما بعد عرفت أنه مات إثر صدمة عصبية من كثرة الألم.. أربعمائة وسبعون جلدة على "العروسة" الخشبية.. تلك الأداة التي تشد كلتا الذراعين في وضع الصلب.

البوق والحوت



لولا الشتاء.. لولا هذا البرد اللعين لرميت بجسدي الضئيل إلى شوارع المدينة الحالكة.. وركضت إلى بوابة عالمها.. لو لم أكن صيادا جائلا يشحذ رزق البحر.. لاشتريت لها حلما لؤلئيا.. وزينت به جيدها.. لو لم يأخذها مني الزمن.. لرقدت بين ركبتيها.. وصنعت شرنقتي.. لو لم يكن يسكنني آخرون لفزت بعشقها وحدي.. لكنْ دوما هناك الآخرون بداخلي.. العربيد والجبان والحالم.. وقارب خشبي صغير يملكه كيان أكبر يتحكم باعتلائي للبحر.. من عقد الأحلام انفرط ملايين.. ولم يعد في هذا العقد البالي سوى حلمين: أن أرى معجزة الله في بحاره.. الحوت الأخير حفيد "الملتقم".. الذي ابتلع يونس النبي ولفظه.. حيث طارده الملاح "بيمون" ونسله من بعده حتى آخر مجنون يهذي الآن.. والحلم الأخير: نداء الصحاري وصدى البراري الموحشة.. وزهرة الجبال البرية.. عادية.. هي لك قد تبدو بصفتها.. عادية.. لكن من سماها عادية لم يكن سوى منافق أكبر.. أو ساحر.. عادية ليس وصفها.. بل تعويذة ألقاها الساحر الذي عمدها في بحر الروعة.. تعويذة عاشت لتقيد أمثالي بسلاسل النار.. لتعيش كصيحة بوق صامت.. تبقى لتتردد بأرجاء ردهاتي.. فيصير صداها أبديا.. عشت صعلوكا بين الموانئ والمراسي.. لا أملك سوى غرابتي ونبذ الآخرين لي.. يوما

آكل ما يقذفه البحر لي.. ويعلق بشباكي.. ويوما يحتسي العربيد داخلي خمرا في حانة فندق فخيم.. ويوما يزعق الجبان.. فنذعن كلنا ونتكوم جميعنا بجوار جدار قبلة في مسجد سكندري عريق.. ويخاطب الحالم عقولا حوله.. فلا أملك إلا أن أصمت وأفسح له المجال.. ويقلب الجميع كفوفهم.. ويتعجبون من حكمة المجنون.. وأعود لتستحوذ خيالاتها على البقية الباقية في عقلي.. عادية.. أين أنتِ؟ ترى هل ترقدين الآن بين أحضان سلطان طاغية مجنون في مملكة شرقية بائدة.. أم تراكِ تبيعين شهد جسدك للضباع في الحانات.. أم تراكِ تحكمين شعبا من المخلوقات الكريستالية التي تشبهك؟ ويأتي شروق يوم.. ويجلب لي القدر القارب الخشبي المتشقق.. هو بذاته.. وأصعد لأرتمي ممددا في قاعه.. وتقذفني قبضة الريح أعلى.. وأسفل.. وأغوص.. وأغرق.. وأنجو.. لأصحو على شواطئ "المارية" مرة أخرى.. وقد اختطف من سنوات عمري التي لم أعد أعرفها حفنة لا بأس بها.. وتنخر عظامي.. ويموت الجبان.. ويعجز العربيد.. ويصاب بالعمى.. وعادية ما زال صداها يعمر أرجائي.. وحفيد الملتقم يصيح في من أعماق المياه البعيدة: تعال الآن.. أبنا هنا في التجلي الأخير.. فلتجرؤ على الخوض عميقا.. تعال..

وتشتعل اللحية بياضا.. وتنحني القامة.. عادية.. اصمتي قليلا..

الملتقم الصغير ينادي.. صدى وجودك يشوش على مسامعي.. ماذا أفعل حتى أخرس بوقك من إيقاظ شوقي العجوز؟ وتأتي تتبختر في سندس فضفاض يشف عن حناياها الكريستالية.. فتقذف روحي حممها المريضة.. فأركض.. أركض في شوارع "المارية" المبتلة بـ"نوة" العم قاسم.. وأركض وعادية الكريستالية تطارد كومة عظامي المربوطة بخيط إلهي.. حتى العم قاسم لم يرحم شيخوخة المجنون.. وصار صقيعه يهزم مفاصلي واحدا تلو الآخر.. فأسقط ببئر سوداء كالغضب.. وأفتح نوافذ روحي.. لأسمع – ولأول مرة منذ جننت – كلاما يبدو عاقلا:

– أيها العجوز.. أنت الآن على متن "البطريق".. قاربي الخاص.. لا تتعب نفسك.. لا تجهد جسدك.. وجدك ابني ملقيا محموما في أحد شوارع الإسكندرية عندما كان يزور مصر.. ونقلك للمستشفى ولم يتركك.. حتى سمع هذيانك عن البحر والحوت الذي تتمنى أن تراه أكثر من أي شيء في الحياة.. فحدثني عنك.. وأنا جلبتك بعدما اعتنى بك الفتى.. نادني بالقبطان "رومان".. لكن قل لي: كيف تعلمت اليونانية؟ قال الفتى إنك فهمت لغته فورا.. بل وتمتمت له بكلمات يونانية عامية.. ملامحك عربية خالصة.. كيف تعلمت لساننا؟ لا بد أنه عن طريق اليونانيين السكندريين..

حسنا.. على أي حال.. أنا مهتم بالحيتان.. وأبجرت حياتي كلها أطارد هذا الجمال العملاق.. ارتَح حتى تسترد عافيتك.. ولتكن رفيق رحلتي إلى أن يستقر أحدنا بوجهته الأخيرة..

ومن خلف كتف القبطان الملتحي.. ومن خلف زجاج القمرة.. أتى الرعد هادرا على الرغم من سطوع الشمس الصفراء الحارقة.. وارتفع البحر ونفض القارب.. وارتفع الظل الأعظم يحجب أشعة الشمس..

هنا وآخر ما رأته عيناه كان صروحا زرقاء كريستالية.. توارى فيها شبح "عادية".. وبرز بهاء العملاق.. الحوت حفيد "الملتقم" يصرخ.. يشق الفضاء المشمس ويعلو إلى السماء.. شهق القبطان "رومان" بدهشة وذهول.. وتجمد قليلا.. ثم رسم القبطان الصليب في وقار حزين والتمعت عيناه.. قفز "الملتقم" الحفيد أعلى.. وأعلى.. يلفظ نافورة الماء الأبيض الزغبي من رأسه ويمور بصوت رهيب يرج فضاء القارب.. ليغطي صوت أبواق لطالما علت وتمددت وسكنت جنبات روحه.

"كيان"



كان يحلم بأن يركض في حديقة شاسعة.. لكن أباه كان فقيرا.. والأدهى.. كان سكيرا..

كان يحب الكلاب.. وهناك من يدعون أنها نجسة..

كان يتمنى أن يرافق الفتاة الرقيقة الشقراء.. لكنه كان "بيئة"..

حلم بالحلوى باهظة الثمن.. وهو يمضغ بقايا قشرة البرتقال العفنة..

حلم بملابس جديدة أنيقة.. وجسده لم يتدثر إلا بالأثمال الموحلة..

نضجت شهوته.. فسكبها في المرحاض خوفا من الخطيئة..

تمنى أن يصير غبيا جاهلا.. فاتقد ذهنه بإدراك ما لم يكن من المفروض لأمثاله إدراكه..

أطلق لحيته.. فانطلقت القيود الحديدية والجدران خلفه.. ومزقته فرية الهمجية "المحظورة"..

أحب السينما.. فمات أحمد زكي.. كرهها فأخرج سكورسيزي فيلما جديدا..

تمنى أن يتلاشى.. فاحتوته جدران الغرفة الضيقة..

دخن الحشيش.. فأيقظ "البارانويا" الراقدة بقاع عقله.. وهذي..

قرض شعرا.. فحلم بأمل دنقل يسخر منه..

كتب.. فمزق أحدهم الصفحة الصفراء البالية و"كرمشها" لينظف بها زجاج سيارته..

صرخ.. فاتهم بالجنون.. بكى فاتهم بالانهزامية.. ضحك.. فاتهم باللامبالاة..

فضح.. فسجن.. طأطأ الرأس.. فصار عبدا..

ثار فتحرر.. تحرر.. فمات..

مبتسما..

كتبت الخاطرة الأخيرة قبل ثورة يناير 2011 بحوالي 48 ساعة فقط! !



غابات الجميز



جمال النشار

" كان يحلم بان يركض في حديقة شاسعة.. ولكن اباد كان فقيرا.. والأدهى.. كان سكيرا "

" كان يحب الكلاب..وهناك من يدعون أنها نجسة... "

" كان يتمني ان يرافق الفتاة الرقيقة الشقراء.. ولكنه كان (بيئة).. "

" حلم بالحلوى باهظة الثمن.. وهو يمضغ بقايا قشرة البرتقال العفنة.. "

" حلم بملابس جديدة أنيقة.. وجسده لم يتدثر إلا بالأسمال الموحلة.. "

" .. نضجت شهوته.. فسكبها في المرحاض خوفا من الخطيئة.. "

" تمني ان يصير غبيا جاهلا.. فاتقد ذهنه بادراك ما لم يكن من المفروض لأمثاله ادراكه.. "

" اطلق لحيته.. فانطلقت القيود الحديدية والجدران خلفه.. ومزقته فرية الهمجية.. (المحظورة).. "

" أحب السينما.. فمات (أحمد زكي).. كرهها فاخرج (سكورسيزي) فيلما جديدا.. "

" تمني أن يتلاشى.. فاحتوته جدران الغرفة الضيقة... "

" دخن الحشيش...فأيقظ (البارانويا) الراقدة بقاع عقله.. وهذى.. "

" قرض شعرا.. فحلم بـ (أمل دنقل) يسخر منه.. "

" كتب..فمزق احدهم الصفحة الصفراء البالية و(كرمشها) لينظف بها زجاج سيارته.. "

" صرخ. فاتهم بالجنون.. بكى. فاتهم بالانهزامية.. ضحك. فاتهم باللامبالاة.. "

" فضح.. فسجن.. طاطا الراس.. فصار عبدا.. "

" ثار فتحرر.. تحرر.. فمات.. مبتسما.. "



مع ازدياد كم الأعمال التي يبدعها الشباب -خاصة بعد ثورة يناير العظيمة- وفي ظل الظروف الحالية التي تمر بها مصر. أصبح سوق النشر والتوزيع في حالة ضعيفة. خاصة مع استمرار ازدياد أسعار الخامات. وإحجام كثير من دور النشر على ممارسة نشاطها بتوسع. وضعف القدرة الشرائية للقارئ المصري. كذلك صارت عملية النشر محفوفة بالمخاطر. التي تخيف طرفيها - الناشر والقارئ - على حد سواء..

وكانت الدار نفسها من الدور التي تأثرت - وبشدة - اقتصاديا. ومع اضطرارها لإغلاق باب تقديم الأعمال هذا العام. فكرنا في حل بديل. هو النشر لمن يستحق.. وتطورت الفكرة كثيرا. إيمانا من دار ليلى (كيان كورب) بأهمية الحركة الثقافية. وحرصا منها على استمرارها في دورها. وإيمانا منها - كما عهدتموها- بالشباب الموهوب.. ليصبح بين أيديكم. هذا الكتاب.

الناشـــر

